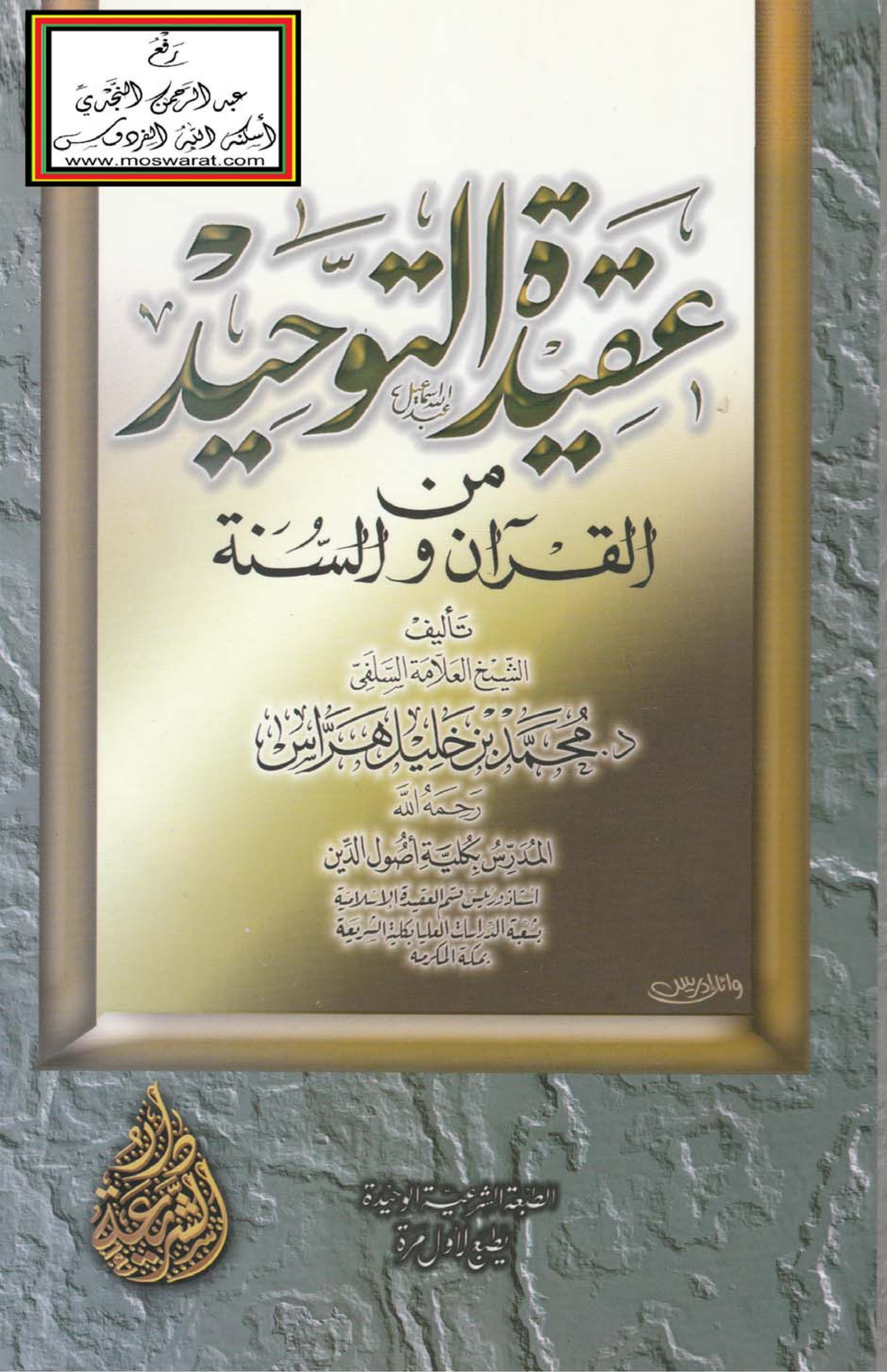


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
عقيدة التوحيد
من القرآن والسنة
تأليف
الشيخ العلامة السلفي
د. محمد بن خليل هراس
رحمه الله
المدرس بكلية أصول الدين
أستاذ ورئيس قسم العقيدة الإسلامية
بشعبة الدراسات العليا بكلية الشريعة
بمكة المكرمة
الطبعة الشرعية الوحيدة
يطبع لأول مرة


رَفْعُ
عبد الرَّحمن النَّجْدِيِّ
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



عقيدة التوحيد

من القرآن والسنة





تنبيه هام

نعلن نحن ورثة الشيخ/ محمد خليل هراس، لجميع الأوساط العلمية ومؤسسات ودور النشر والمطابع باننا قد اعطينا حقوق الطبع لكتب والدنا الشيخ/ محمد خليل هراس (رحمه الله) إلى مكتبة دار الشريعة للطباعة والنشر والتوزيع بجمهورية مصر العربية لصاحبها الاخ/ وليد مجدى صلاح الدين وهذا بموجب عقد مبرم بيننا - اى ورثة الشيخ - بين (دار الشريعة للطباعة والنشر والتوزيع).

ولم يتم من طرفنا عمل عقد آخر مع اي مكتبة او دار نشر أو مطبعة داخل جمهورية مصر العربية أو خارجها إلا (دار الشريعة للطباعة والنشر والتوزيع)

كما ينبه ورثه الشيخ بان اى مكتبة او دار نشر داخل جمهورية مصر العربية أو خارجها قد تقوم بطباعة مؤلفات والدنا الشيخ هى طبعات غير شرعية ويعرض صاحبها للمساءلة القانونية.

ولذا جرى التنبيه حتى لا يغتر احد بشراء أو بيع أو توزيع هذا المطبوعات.

والله الموفق

الوكيل الشرعى لورثة

الشيخ/ محمد خليل هراس

إبراهيم محمد خليل هراس

الشيخ/ إبراهيم محمد خليل هراس

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ٢٢٣١٤ / ٢٠٠٤



للطباعة والنشر والتوزيع

الناشر دار الشريعة للطباعة والنشر والتوزيع

٨١ شارع الهدى المحمدى - متفرع من أحمد عرابى - مساكن عين شمس
القاهرة - جمهورية مصر العربية
جوال/ ٠٢٠١٠٣٠٥٩٠٥٢ / ٠٢٠١٠١٠٢١١٨٧

فاكس/ ٠٢٠١٠١٠٢٢٧٢٨
موقعنا على الإنترنت www.darelshareaa. Com
البريد الإلكترونى Www.darelshareaa@maktoob.com





عقيدة التوحيد

من القرآن والسنة

تأليف
العلامة السلفي

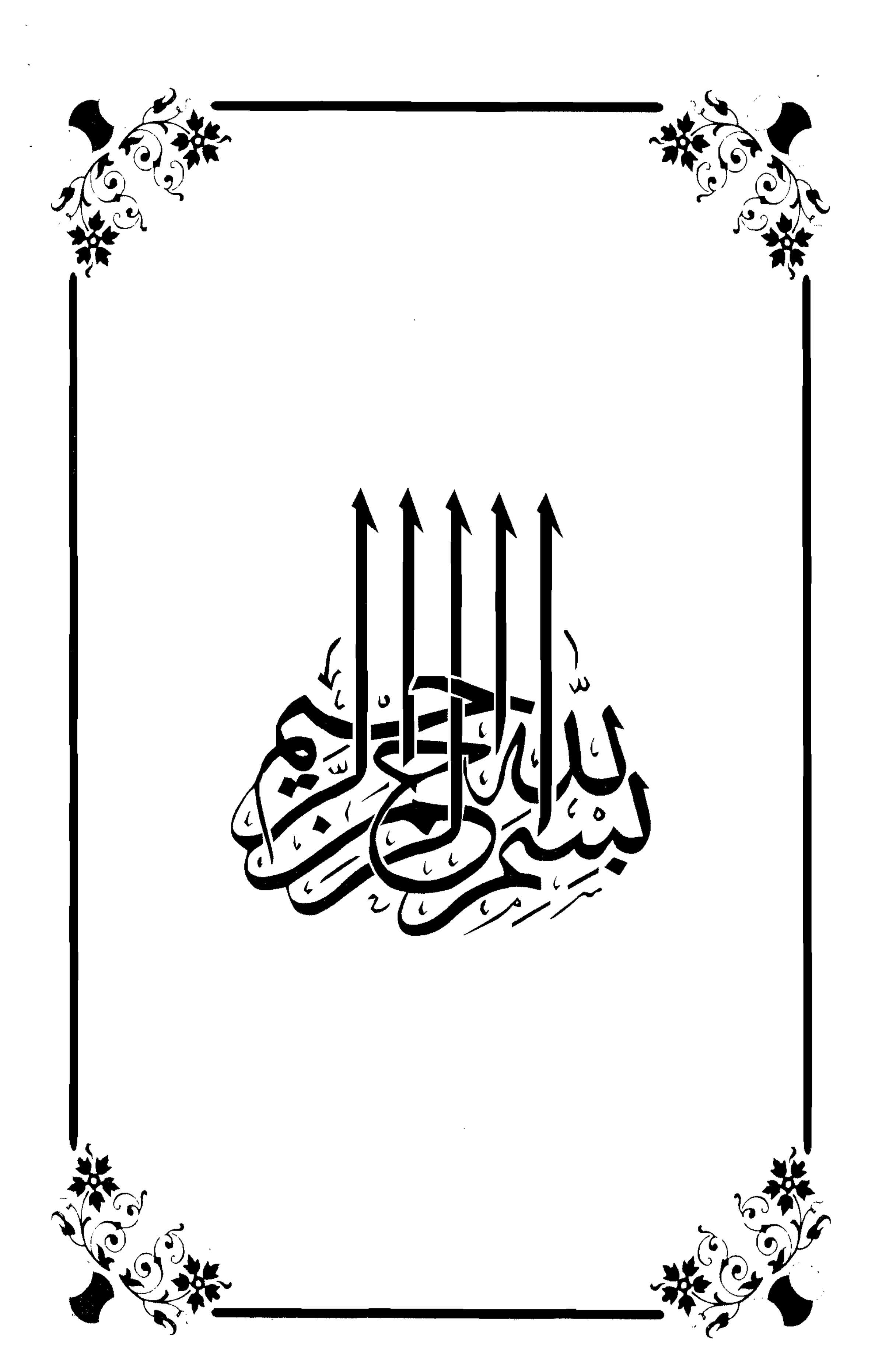
د. محمد بن خليل هراس

رحمه الله
المدرس بكلية أصول الدين
وأستاذ ورئيس قسم العقيدة الإسلامية
شعبة الدراسات العليا
بمكة المكرمة

الطبعة الشرعية الوحيدة






بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله ذي العز المجيد، والبطش الشديد، المبدئ المعيد، الفعال لِما يريد، المنتقم ممن عصاه بالنار بعد الإنذار بها والوعيد، المكرم لمن خافه واتقاه بدار لهم فيها من كل خير مزيد؛ فسبحان من قسم خلقه وجعلهم فريقين: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. أحمده وهو أهل للحمد والثناء والتمجيد، وأشكره، ونعمه بالشكر تدوم وتزيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا كفو ولا عدل ولا ضد ولا نديد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى التوحيد، الساعي بالنصح للقريب والبعيد، المحذر للعصاة من نار تلظى بدوام الوقيد، المبشر للمؤمنين بدار لا ينفد نعيمها ولا يبيد، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه

أما بعد:

فإن طبع الكتب أمر من قديم الأزل فمن الكتب ما يستحق نشره ومنها من يستحق حرقه وهنا يحصل التميز ؛ تميز الصحيح ؛ والتميز الصحيح ليس بحسن التنسيق فقط ولا وبحسن الطباعة ولا التجليد ولا غيره من ظواهر الأمور لكن التميز الصحيح هو بالتمسك بمؤلفات الماشين على منهج السلف الصالح والتمسك بالأمانة العلمية في النقل عن المشايخ ، وعدم التجرئ على أحد من أهل العلم ، وطلبته ، ورفض كل ما يشوبه من بدعة أوشرك أو مخالفة لمنهج هؤلاء المرضي عنه.

وعلى هذا المنهج الموفق بإذن الله قمنا بنشر كتاب العلامة السلفي محمد خليل هراس **((عقيدة التوحيد))** فما كان منا من خطئ أو نسيان فمنا ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان ، وما كان من صواب والتوفيق فمن الله وحده ولا إله غيره.

والله الموفق ، وهو الهادي إلى سواء السبيل ، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد ﷺ وآله أجمعين.

دار الشريعة

جعلها الله للتوحيد والسنة رافعة



مقدمة التخريج

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله.

﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يا أيها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فإليك أخي القارئ كتاب عقيدة التوحيد للعلامة السلفي محمد خليل هراس والذي يبين فيه عقيدة السلف تجاه ربه ومعبودهم فيبين فيه توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ونبذه عن توحيد الأسماء والصفات حيث أن كثير من الناس قد ضلوا في هذا الباب.

ففي هذا الكتاب قد أضحض الشيخ عقائد هؤلاء المخالفين لمنهج السلف.

وقد قمنا بإخراجه إليه في صورة طيبة بإذن الله فاقرأ وانتفع، نفعنا الله وإياك بالعلم النافع والعمل الصالح.

كتبه /

قسم التخريج بمكتب أهل الحديث

ترجمة الإمام العلامة

محمد بن خليل هراس

المدرس بكلية أصول الدين وأستاذ ورئيس قسم العقيدة الإسلامية بشعبة الدراسات العليا بكلية الشريعة بمكة المكرمة

١٣٣٥ - ١٣٩٥هـ -/١٩١٥ -١٩٧٥م

بقلم أحد تلاميذه

فضيلة الشيخ/ عبد الفتاح سلامة

رئيس قسم التفسير بشعبة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

اسمه: هو الأمام العلامة الكبير ناصر السنة وقامع البدعة الشيخ الدكتور/ محمد بن خليل حسن هراس رحمه الله

مولده ونشأته:

ولد رحمه الله عام ١٩١٥م في بلدة الشين، مركز قطور ، محافظة الغربية ثم بدأ تعليمه في الأزهر الشريف عام ١٩٢٦م ثم تخرج من كلية أصول الدين عام ١٩٤٠م وكان موضوع الرسالة (ابن تيمية السلفي) ثم شغل وظيفة أستاذ بكلية أصول الدين ثم طلبه سماحة العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز لكي يدرس العقيدة الإسلامية بمكة المكرمة فشغل منصب رئيس قسم العقيدة الإسلامية بكلية الشريعة بجامعة أم القرى(وقد أنشئ هذا القسم من أجل أن يشغله رحمه الله).

عقيدته:

كان رحمه الله سلفي العقيدة شديد التمسك بها وناصر لها كما كان رحمه الله شوكة في حلوق المبتدعة، قال عنه فضيلة الشيخ محمد رشاد الشافعي: (كان يلاقي رحمه الله من عنت الجبارين وكيد المبتدعين وزندقة الملحدين ما لايطقه إلا الصابرون والمحتسبون) حيث ظل رحمه الله طوال حياته مدافعًا عن الحديث الشريف الصحيح من اعتداءات

منكري السنة فكان رحمه الله أول من رد عليهم كيدهم فتعرض رحمه الله لمحاولات عديدة للقتل من متشددي الصوفية ومنكري السنة ولكن الله أعلم بمكائدهم فنجاه الله حتى يكون شوكة في حلوقهم وقد ركز رحمه الله على كتابة كتب العقيدة مثل الصفات الإلهية عند ابن تيمية- شرح العقيدة الوسطية- ابن تيمة السلفي وقد تم في الأونة الأخيرة حصول الباحث موسى بن واصل السلمي على درجة الماجستير من كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة على درجة الماجستير في العقيدة وكان موضوعه: الشيخ خليل هراس وجهوده في تقرير عقيدة السلف وكان اختياره للهراس - رحمه الله - كما يقول الباحث:"لاتصاف مؤلفات الشيخ بغزارة العلم، ووضوح الأسلوب، والفهم الدقيق لما عليه المخالفون لعقيدة السلف - كما تقدم - مما يجعل القيام لإبراز هذه الجهود فيه خير عظيم ونفع عميم".

وقد انتهى الباحث إلى أن الشيخ الهراس:

- تميز بقوة الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة مما يدل على رسوخه وتمكنه في العلم.

- تمسك الشيخ الهراس - رحمه الله - الشديد بالكتاب والسنة، والرد إليهما وتحكيمهما في جميع الأمور.

-اهتمام الشيخ الهراس - رحمه الله - بالأصول التي بنى المتكلمون عليها مذاهبهم في الاعتقاد وهي طريقة مفيدة جدا في معرفة الحق.

مكانته العلمية:

كان رحمه الله على قدر كبير من التميز في دراسة العقيدة السلفية وملمًا إلمامًا دقيقًا بفكر الفرق الضالة المختلفة وكان رحمه الله له القدرة على أن يتكلم في موضوعات تحسبها لأول وهلة أنها من أعقد قضايا الاعتقاد ولكن الشيخ رحمه الله كان له القدرة على أن يجلي غامض الأمور وكان من عارفيه وممن كانوا رفقاء له وكانوا يقدروه حق قدره ويعرفوا مكانته العلمية جماعة من كبار العلماء من أمثال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله الذي ألح على طلب إعارته للتدريس بمكة المكرمة وذلك بعد معارضة الأزهر لذلك غير أن الملك فيصل رحمه الله طلب وألح في طلبه وبقى في هذا المنصب حتى توفاه الله وكان من عارفيه أيضًا الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفى رحمه الله

وفضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل رئيس قسم العقيدة الإسلامية بجامعة أم القرى وفضيلة الإمام محمد حامد الفقى وغيرهم الكثير.

ثناء العلماء عليه:

وصفه رحمه الله جمع غفير من العلماء السالفين والمعاصرين لأنه كان ناصر للسنة وأهلها وقامعًا للبدعة وأهلها ونصحوا بقراءة مؤلفاته لما فيها عظيم الفائدة وكان من بينهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، وفضيلة الشيخ/ عبد الرزاق عفيفى، وفضيلة الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني، والشيخ/ محمد بن صالح العثيمين، وفضيلة الشيخ/ محمد حامد الفقى ، وفضيلة الشيخ/ مقبل بن هادى الوادعي، وفضيلة الشيخ/ محمد أمان بن علي الجامى، وفضيلة الشيخ/ علي بن ناصر الفقيهي، وفضيلة الشيخ/ أبو الوفا درويش.

تلاميذه:

حضر له جمع من العلماء الأجلاء منهم :

١- علي بن ناصر الفقيهي أستاذ العقيدة الإسلامية بالجامعة الإسلامية سابقًا.
٢- فضيلة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين.
٣- فضيلة الشيخ/ أحمد بن عطية الغامدي أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية.
٤- فضيلة الشيخ/ عبد الفتاح سلامة رئيس قسم التفسير بشعبة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية.
٥- الأستاذ الدكتور/ محمد أمان بن علي الجامي رئيس قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية سابقًا.
٦- الأستاذ الدكتور/ محمود محمد مزروعة أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى.

وفاته:

توفي رحمه الله في سبتمبر عام ١٩٧٥م بعد حياة حافلة بالعطاء حيث كان له نشاط ملحوظ في العام الذي توفي فيه حيث ألقى عدة محاضرات في طنطا والمحلة الكبرى والمركز العام لأنصار السنة وكانت آخر خطبة له بعنوان التوحيد وأهمية العودة إليه توفي بعدها مباشرة بعد أن خدم كتاب الله وسنة رسوله وصدق رسول الله ﷺ

حيث قال: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينزعه بنزعه من قلوب الرجال إنما يقبض العلم بموت العلماء))

تمهيد

نرى من الواجب ونحن نريد أن نكتب عن العقيدة الإسلامية كما نطق بها الكتاب الكريم، والسنة الصحيحة، وكما فهمها السلف الصالح ﵃ من نصوص هذين المصدرين الكريمين، أن ننبه الأذهان إلى جملة من مبادئ والأمور العامة التي لابد من الوقوف عليها قبل الدخول في المقصود، لأنها تعين القارئ على فهم المنهاج الصحيح الذي يجب أن يتبع معالجة هذه المسائل الكبار التي هي أصول الدين والفقه الأكبر، وهذه الأمور هي :

أولاً: أن الكتاب والسنة هما النوران الهاديان والنبعان الصافيان اللذان قد تكفلا ببيان الدين كله أصوله وفروعه، فيجب أن نستمد منهما جميع الأحكام الدينية، اعتقادية كانت أو عملية، ولا يجوز أن يعارضا بشيء من أقيسة العقل، أو الكشف والإلهام، أو تؤول نصوصهما بما يخرجها عن معانيها التي دل عليها الوضع اللغوي والعرف العام من أجل ما يزعمه بعض الناس من قرائن عقلية، ونحو ذلك.

ثانيًا: أن مسائل العقيدة هي أصل الدين والأساس الذي تبنى عليه جميع الأعمال من عبادات وغيرها، فيجب أن نرتفع عن مستوى الخلاف والجدل، وأن لا تثار حولها الشكوك والشبهات، لأنها جميعًا من قبيل الأخبار الصادقة التي يجب أن تقابل بالتصديق والإذعان لا بالتشكيك والنكران.

ولهذا كانت متفقة في جميع الأديان، قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ وقال آمرًا لنبيه عليه الصلاة والسلام بعد ذكر من سبقه من الرسل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فالمراد به الإقتداء في أصل

الدين من التوحيد والإيمان . ولهذا أيضًا لا يسوغ فيه الاجتهاد، كما يسوغ في العمليات التي هي متعلق الأمر والنهي .

ولم يؤثر عن السلف الصالح ﷺ أنهم اختلفوا في عقائدهم كما أثر ذلك عنهم في الفروع، وقد ذم الله المختلفين في آيات كثيرة.

منها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وقوله في سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

ثالثًا: جميع الخلافات الاعتقادية التي فرقت دين الأمة وجعلتها شيعًا وأضرمت بينها نار العداوة والبغضاء، وجعلت بأسها بينها شديدًا، وأضعفتها أمام أعدائها كانت كلها بحمد الله وليدة عوامل أجنبية لا صلة لها بالدين.

فكان أصحابها لا يصدرون فيها عن فهم صحيح للكتاب والسنة واستمساك بهما، ولكن يصدرون إما عن هوى غالب، أو عصبية ممقوتة، أو تقليد أعمى، أو تأثر بالفلسفات الأجنبية، والأفكار الدخيلة، أو خدمة أغراض خاصة، أو حقد وموجدة على الإسلام ورغبة في إفساده على أهله، إلى غير ذلك من عوامل هي أبعد ما تكون من الدين.

ولهذا ذم السلف رضي الله عنهم جميع الفرق المختلفة الخارجة عن دائرة الكتاب والسنة من خوارج، ومرجئة وشيعة، ومعتزلة، وقدرية، وجهمية وغيرها، واضطروا إلى عقد المناظرات وتأليف الكتب للرد على هذه الفرق والدفاع عن عقيدة أهل الحق مع كراهتهم الشديدة للخوض في علم الكلام، وذمهم للمشتغلين به حتى قال الشافعي رحمه الله : (حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد، والنعال، ويُطاف بهم في العشائر، ويُقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة)

ولعل تلك الكراهية الشديدة لعلم الكلام وأهله كان منشؤها اعتقاد السلف رحمهم الله: أن الكتاب والسنة قد تكفلا في هذا الباب بما لا حاجة معه إلى قول

أحد ورأيه، وأن جميع العقائد الإيمانية مع أدلتها التفصيلية اليقينية موجودة فيهما بأجمل أسلوب وأوضح عبارة.

رابعًا: يزعم كثير من المشتغلين بعلم الكلام من أشعرية ومعتزلة وفلاسفة: أن أدلة العقل وحدها هي التي ينبغي أن يعول عليها في التوصل إلى العقائد الصحيحة لأنها أدلة برهانية تفيد اليقين.

وأما الأدلة التي يسوقها القرآن الكريم لإثبات توحيد الله عز وجل، وقدرته وعلمه وحكمته وغيرها، فهي بمعزل عن إفادة اليقين لأنها خطابية، لا تفيد إلا الظن، ولا تصلح إلا لإقناع العامة- وهذا القول في شناعته وجرمه يضاهئ به أصحابه قول المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين - وإن شناعته أعظم من أن يقدموا أدلة عقولهم المأفونة على أدلة القرآن الكريم، فيجعلوا عقولهم حاكمة ومهيمنة على كتاب الله - سبحانك هذا بهتان عظيم، وجهل فاضح بقدر القرآن، بل وبقدر من أنزله وجعله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وجعله موعظة وشفاء لما في الصدور، وأنزله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

إن أدلة القرآن، لا تعتمد على تلك الجهليات والظنون الكاذبة، والأوهام الضالة التي تعتمد عليها أدلة عقولكم، ولكنها تعتمد على أسمى ما في النفس من مشاعر وأحاسيس، ولا تقوم إلا على ما يراه الناس بأعينهم، ويلمسونه بأيديهم من عجائب الخلقة ودقيق الصنعة، وتباين الأشكال واختلاف الصور، وما أُودع في الأشياء من عظيم المنافع وضروب المصالح، إلى غير ذلك مما يسكب في النفس برد اليقين، ويملأها إيمانًا محضًا لا تشعر باختلاجة ريب ولا بريح شبهة.

وليست أدلة القرآن نقلية فقط كما زعمتم، ولكنها نقلية وعقلية، فهي نقلية من جهة ورودها على لسان الشرع، وعقلية من جهة دلالتها، بل هي أسمى ما يمكن أن يصل إليه العقل في الاستدلال، ولهذا يجيء كثيرًا بعد سوق هذه الدلائل

في القرآن أن تختم الآية بما يفيد أنها نزلت لقوم يعقلون ويتفكرون ويعلمون ويسمعون.

وكيف لا تكون أدلة القرآن عقلية، وهو إنما نزل يخاطب العقل ويدعوه إلى البحث والنظر ويفتح أمامه آفاق التفكير واسعة، ويطالبه بأن لا يؤمن بشيء إلا إذا قام عليه البرهان وأثبته العلم الصحيح، ويحذره دائمًا من الجري وراء الهوى والظن والانسياق وراء التقليد الأعمى بلا مناقشة ولا تفكير.

خامسًا: وهناك فرية أخرى تلوكها ألسنة هؤلاء المتهوكين المخذولين يجب التنبه لها، فقد خدعوا بها كثيرًا من السذج، وهي قولهم (إن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم) .

وهذه العبارة تنادي على نفسها بما تنطوي عليه قلوب هؤلاء المغرورين بما عندهم من قشور فارغة من إزراء بمقادير السلف وتجهيلهم وأنهم لم يبلغوا من العلم والتحقيق مبلغ هؤلاء المتأخرين المتحذلقين.

وقد يشتد بك العجب إذا علمت أنهم إنما يعنون بالسلف خير قرون هذه الأمة وأكملها علما وإيمانًا من الصحابة والتابعين ومن جرى على نهجهم من أئمة الهدى الذين جانبوا البدع ووقفوا عند الكتاب والسنة دون تزيُّد أو تقصير فلم يخوضوا كما خاض هؤلاء في جدل عقيم وتخرصات كاذبة ولم يقولوا على الله ما لا يعلمون.

وكيف يجوز في عقل عاقل أن هؤلاء الكرام الذين قام بهم الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، يكونون أقل علمًا وحكمة من هؤلاء المخالفين للكتاب المختلفين فيه. فمن تلوثت عقولهم بالفلسفات الدخيلة والأفكار العفنة التي نُقلت إليهم عن المجوس والنصارى وعبدة الأوثان وصابئة حران.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عند تعرضه لرد هذه الفرية في عقيدته الحموية:

«إن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف، إنما أتُوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المعروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات. فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر. وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة الخلف».

سادسًا: مما تقدم يعلم أن المنهج الذي سنلتزمه في هذا البحث هو ما جرى عليه السلف ﷺ من الإيمان بكل ما ورد به الكتاب والسنة في باب الصفات وغيرها من غير لجوء إلى تأويل متكلف يخرج اللفظ من معناه ويحرف الكلم عن مواضعه، من غير موُجِب لذلك من قرينة ونحوها.

وأما ما يدعيه كثير من المتكلمين المعطلة من قرائن عقلية توجب تلك التأويلات: فغير مسلم لهم، بل العقل الصريح الخالي من الهوى والتقليد لابد أن يكون موافقًا لما دلت عليه النصوص، فشعارنا إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل. والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل.

وجود الله

لا شك أن الإيمان بوجود الله جل وعلا هو أساس العقائد الإيمانية كلها، بل أساس جميع الأديان والشرائع السماوية لأنها جميعًا إنما قامت على أساس أنها نازلة من عند الله سبحانه.

ولهذا كان أهم ما يهدف إليه أهل المروق والإلحاد من أعداء الرسل والأديان هو التشكيك في وجود الله تعالى كما نرى اليوم فيما يشغف به دعاة الشيوعية وأذناب الوجودية، وغير هؤلاء وأولئك من عناصر الشر والفوضى والانتهازية ومن المؤسف حقًا أن نرى كثيرًا من شبابنا المسلم المثقف يستجيب سريعًا لهذه الدعوات المخزية مأخوذًا بما يزينه له شياطينها من زخرف القول وباطله وما يغرونه به من التحلل والانطلاق من قيود الدين والأخلاق.

فلا يلبث أن يقع في شراكهم صيدًا سهلاً فيسلبونه دينه وخلقه وجميع مقومات حياته التي يعتز بها ويعيش من أجلها ويصبح أداة طيعة في أيدي هؤلاء الأبالسة يستخدمونه لتحقيق مآربهم

الخبيثة في الترويج لمبادئهم الهدامة التي ما سادت في أمة إلا سلبتها أعز ما تعتز به من دين وشرف وتقاليد وجميع مقدراتها الأدبية والروحية.

ولست أدري كيف يسوغ لعاقل يحترم عقله ويقدر نعمة التمييز التي أكرمه الله بها أن ينخدع لهذه الدعوات الإلحادية الخبيثة فيما تهذي به من إنكار وجود الله، وهو يراه سبحانه ظاهرًا في نفسه وفي كل ما حوله من الأشياء التي هي آثار قدرته، ومجالي علمه وحكمته وفيض وجوده ورحمته، والتي حمل النظر فيها كثيرًا من علماء الغرب الملحد أن يقروا بوجود الله عز وجل على أنه ضرورة علمية لامناص منها لما عجزوا عن تفسير ظواهر الكون وأعاجيبه تفسيرًا ماديًّا بحتًا، ورأوا أنها تسير كلها وفق غاية مرسومة ونظام محكم دقيق.

وإذا كان وجود الله عز وجل يعتبر من أجلى البديهيات لدى العقول السليمة والفطر المستقيمة التي لم يفسدها الهوى والتقليد الأعمى، فهو ليس بحاجة إلى تلك الجدليات الفارغة التي اصطنعها علماء الكلام وسموها جهلا براهين كقولهم «العالم جواهر وأعراض والأعراض حادثة والجواهر لا تخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث فثبت حدوث العالم بجواهره وأعراضه» .

فهذا الدليل هو عمدتهم في الاستدلال على وجود الله، لأنه إذا ثبت حدوث العالم بجميع أجزائه فلا بد أن يكون له محدث، وهو الله عز وجل مع أن الدليل كما ترى مبني على مقدمات افتراضية غير مسلمة وعلى نظرية قديمة في العالم الطبيعي قال بها (ديمقراطيس اليوناني وملخصها أن العالم مركب من ذرات في غاية الصغر متشابهة وأنها تجتمع بحركة تلقائية فتكون الأجسام ثم تتفرق كذلك فتنحل الأجسام وتفنى) ولعل هذه النظرية الآن بعد نجاح العلم في تحطيم الذرة قد أصبحت في خبر كان.

ومن العجب أن هؤلاء المتكلمين يقدمون هذا الهذيان على أدلة القرآن ويزعمون أنه البرهان الأوحد على وجود الرحمن حتى يقول بعض هؤلاء الحمقى: (إن من لم يؤمن بالله من طريق هذا الدليل لم يتم إيمانه) ويوجب من أجله الإيمان بذرات ديمقرايطيس الوثني.

فكم من المسلمين يستطيع أن يفهم هذا الدليل أو يقتنع به؟ وعلى رأي هذا الجاهل لم يكن الرسول ﷺ ولا صحابته ولا التابعون لهم بإحسان ولا أحد ممن مات قبل اختراع هذا الدليل مؤمنًا لأننا نعلم بالضرورة أن هذا الدليل مبتدع لا أصل له في كتاب ولا سنة ولا هو مأثور عن أحد ممن يعتد بدينهم وإيمانهم من سلف هذه الأمة.

إنا لنرجوا مخلصين من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ومعاونيه في إدارة تلك الجامعة الإسلامية الكبرى وكلهم بحمد الله دكاترة فضلاء يؤمنون

بحرية البحث وتطور الفكر أن يرحموا عقول طلاب الأزهر من هذه الكتب الجافة العقيمة التي لا تحمل بين سطورها إلا نتاج عقول مريضة وأفكار ونظريات غريبة عن الإسلام .

إن طريقة القرآن الكريم هي أقوم الطرق وأهداها وفيها لمن تأملها الكفاية والشفاء بل هي الأدلة التي يتعين الإيمان بالله وأسمائه وصفاته من طريقها.

وليس لقائل أن يقول: إنها أدلة نقلية لا يؤمن بها إلا من يعتقد بالقرآن، لأننا نقول إن أدلة القرآن نقلية وعقلية فهي نقلية من جهة ورودها ونصب الشارع لها، ولكنها عقلية من جهة دلالتها لأن الله عز وجل إنما نصبها للعقول جميعًا لننظر فيها ونستدل بها.

وهي أقرب إلى العقل من تلك الألغاز والأحاجي التي يستعملها أهل الكلام والجدل ـ فإنها تستند دائمًا إلى ما يشاهده الناس ويقع تحت حواسهم ويتصل بحياتهم ويتفاعل مع مشاعرهم من اختلاف صور الأشياء وألوانها ومنافعها وما يتجلى فيها من دقة الصنع وإحكام التركيب وتناسب الأجزاء ، وما يحصل من ذلك من مصالح ومنافع مقصودة، إلى غير ذلك مما يراه كل أحد ولا يستطيع أن ينكره.

ولهذا كانت أدلة القرآن هي التي تصلح لجميع الناس على اختلاف عقولهم وتفاوت ثقافتهم كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨] .

وأرى بعد هذه المقدمة أن أعرض عليك أيها القارئ الكريم بعض النماذج من أدلة القرآن العظيم، تاركًا لك أن تتأملها بعقلك وتفتح لها قلبك ووجدانك حتى يتم انتفاعك بها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ .

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

وقال في سورة الأنعام: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

وقال جل شأنه في أول سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

وقال جلت آلاؤه في سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى

مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

وقال تقدست أسماؤه في سورة فاطر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر:٢٧،٢٨].

وقال جل ثناؤه في سورة الغاشية: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية:١٧،٢٠].

هذا قليل من كثير مما ورد في القرآن الكريم من دلائل وبراهين لا تدل على وجوده سبحانه فحسب ولكنها تدل أيضا على وحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته، وحكمته وجوده ورحمته .

كتبنا عن الاعتقاد بوجود الله عز وجل وقلنا أنه أمر مركوز في الفطر كما حكى الله عن الرسل عليهم الصلاة والسلام أنهم قالوا لأممهم ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]

وقدمنا بين يدي القراء جملة صالحة من آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله فيهما من أشياء تنطق بعظيم قدرته وجسيم وبالغ تدبيره وحكمته.

وتركنا لهم أن يتأملوا بأنفسهم في هذه الآيات حتى يدركوا ما تتضمنه من الدلائل والبراهين وكنا نحسب أن فيما قدمناه الكفاية ولكن بعض الإخوان رغب إلينا أن نزيد هذا الموضوع تجلية نظرًا لأهميته وحاجة الناس إليه بسبب ما يلقيه الملاحدة في أوساط الشباب من سموم الجحود والأفكار لا سيما وقد اتسم هذا الإلحاد بسمة العلم ولبس ثوب التفلسف، فلا بد من مقابلته بالأدلة التي تكفي لاستئصال شأفته ودحض فريته.

وأرى قبل أن أجيبهم إلى طلبهم أن أذكرهم بحكاية ذلك الأعرابي الذي قيل له بم عرفت ربك؟ فأجاب على البديهة (البعرة تدل على البعير والقدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا تدل على اللطيف الخبير).

وهي حكاية نسوقها كشاهد على أن الفطرة السليمة التي لم تتدنس بالجحود ولم تفسد بالتقليد الأعمى والجري وراء الأهواء والشهوات لا تحتاج في إيمانها بالصانع الأعظم جل وعلا إلى أن تُحشد لها الحشود في الأدلة والبراهين.

فليس مناط الأفكار هو قلة الأدلة ولا قصورها عن إفادة المطلوب فإن كل شيء مما يراه الإنسان أو يحسه صالح لأن يكون دليلاً.

ولكنه الإعراض والغفلة والاستكبار عن النظر في آيات الله عز وجل والتعامي عنها، والغرور الأحمق بما وصل إليه علم الإنسان من تقدم في الكشف والاختراع . ونسيان الإنسان نفسه وعدم التفكير فيما خلق له.

حتى ظن أنه واحد من هذه الحيوانات التي تملأ البر والبحر فليس لوجوده غاية ولا من ورائه حكمة وإنما هو وليد الصدفة وسليل التطور إلى غير ذلك مما تهجس به أفكار الناس في هذا العصر الذي لا يعرف إلا المادة وقوانين المادة.

ولا يكلف نفسه النظر إلى ما وراء ذلك من الغايات البعيدة والحكم العالية، وهذا التناسب والانسجام الذي يلمحه البصير في كل ذرة من ذراته فلا عوج ولا فطور ولا تفاوت ولا تنافر بل نظام والتئام كما قال تعالى﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات:٢٧،٣٣].

يحكى ابن كثير في تفسيره أن جماعة من الزنادقة جاؤا إلى أبي حنيفة ـ رحمه الله وطلبوا إليه أن يقيم لهم الدليل على وجود الله، فقال لهم نعم سأفعل، ولكن أمرًا

قد بلغني الساعة فأقلقني وحيرني وقد جئتم وأنا أفكر فيه، قالوا: وما ذاك قال: بلغني أن سفينة بعرض دجلة موقرة بأنواع المتاع تمشي وحدها بلا ربان يقودها ثم ترسو على الشاطئ بنفسها فتفرغ حمولتها وحدها ثم تعود لتمتلئ ثم تجئ فتفرغ ليس معها أحد . فقالوا له وهل ذلك يعقل؟ فقال لهم إذا كنتم لا تصدقون هذا ولا تعقلونه في سفينة صغيرة فكيف ساغت عقولكم أن هذا الكون العظيم الممتلئ بما لا يحصى من الأجرام العلوية والسفلية يسير وحده بلا مدبر فرجع هؤلاء الزنادقة عن أفكارهم وأسلموا.

ويذكر ابن كثير أيضًا أن هارون الرشيد سأل مالك بن أنس رحمه الله دليلاً على وجود الله فاستدل له باختلاف الألوان واللهجات والأصوات. ولا شك أنه استدلال صحيح والقرآن الكريم نفسه قد نوه به وجعله من جملة الآيات قال تعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢].

وقال في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٧،٢٨].

ومما يستوقف النظر هنا أن كلا من الآيتين قد ختمت بما يفيد أن آية الاختلاف في الألوان والأصوات قد اختص بإدراكها العلماء وأي عالم لا يسعه إلا أن يطأطئ الرأس أمام هذه الآية الكبرى التي لا يزال العلم رغم تقدمه عاجزًا عن تعليلها مما يشهد بأن هذا التنويع والتخصيص إنما هو بتقدير العزيز العليم.

ويروي ابن كثير عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال بصدد الاستدلال على وجود الله عز وجل (هذه ورقة التوت شيء واحد تأكله النحلة فتخرج عسلاً وتأكله الدودة فتخرج أبريسم وتأكله البهيمة فتخرج لبنًا).

ومن هذا أن الشافعي يستدل بالاستحالات المختلفة التي يصير إليها الشيء الواحد وهو باب واسع جدًا من أبواب الاستدلال ويكفي أن يتأمل الإنسان في نفسه فهذا الدم الذي يجري في عروقه شيء واحد ومع ذلك يدخل في تركيب الأعضاء المختلفة وهو في الفم لعاب وفي العين دمع وفي الأصلاب نطف، وفي الثداء لبن إلخ.

وهذه النطفة التي يتخلق منها قد تقلبت في أطوار عدة واستحالت من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام حتى صارت بشرًا سويًا فتبارك الله أحسن الخالقين.

وأما الأمام أحمد رحمه الله فيحكي عنه ابن كثير أنه قال: (هاهنا حصن محكم أملس ليس به منافذ ولا ثقوب فبينما هو كذلك إذ انفتح الحصن وخرج منه حيوان سميع بصير) فالحصن هو البيضة تظهر ملساء لا ثقوب بها يتخلق فيها الطائر حتى إذا اكتمل، نقرها وخرج منها.

وأخيرًا فليتأمل البصير فيما يحدث حوله من أشخاص النبات والحيوان: فهل يعقل أن تكون قد أحدثت نفسها أو أُحدثت بلا محدث؟ وهل يُخرج العدم وجودًا وهل تنشئ الفوضى نظامًا؟ وهل يحدث بيت بلا رسم وتصميم سابق؟ وصدق الله ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور:٣٥،٣٦]؟.

توحيد الله عز وجل

انتهيت في الكلام السابق إلى أن التوحيد الذي هو صفة الله عز وجل إما أن يكون توحيدًا في إلهيته بمعنى أنه هو الإله المعبود بحق الذي ينبغي أن تتألهه القلوب محبة وتعظيمًا وإجلالاً وخوفًا ورجاء وأن تفرده بالعبادة والتقديس وأن تخلص له الدين في كل ما دان به عباده من أمر ونهي.

وهذا النوع هو المتبادر من لفظ التوحيد عند إطلاقه نظرًا لأهميته فهو التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام أممهم وقاتلتهم عليه وهو الذي خلق الله الخلق جميعًا لأجله كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

وجعلت كلمة لا إله إلا الله لأنها معبرة عنه دالة عليه أفضل الكلام وبالإقرار بها يثبت الدخول في دين الإسلام.

وإما أن يكون توحيدًا في ربوبيته بمعنى إفراده سبحانه بكل ما هو من شؤون الربوبية وخصائصها من الخلق والرزق والتدبير والحكم فهو وحده رب العباد ومليكهم ومدبر أمرهم لا يخرجون عن مشيئته وقدره وكلماته التامات التي لا يجاوزها بر ولا فاجر. وهذا النوع من التوحيد كان يقر به المشركون ولاينكرونه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وإما أن يكون توحيدًا في الأسماء والصفات بمعنى اختصاصه تعالى بكل ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات وعدم مشاركة أحد من المخلوقين في شيء منها وبمعنى إثباتها كلها له دون تعرض لشيء منها بالإنكار أو التأويل .

وهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد وإن كانت تبدو متغايرة في المفهوم وفيما يتعلق به كل منها إلا أنها متلازمة في الوجود بحسيب العقل فإنه كلما ثبت له سبحانه الإنفراد بشئون الربوبية كلها من الخلق والملك والرزق والتدبير ونحوها فقد ثبت له الانفراد باستحقاق العبادة والتقديس إذ لا يستحق ذلك إلا من كان خالقًا مالكًا.

وبالعكس كل من عبد الله عز وجل وحده فلا بد أن يكون قد رضي به ربًا فلم يشرك به أحدًا في ما هو من سمات الربوبية وخصائصها؛ إذ لو جاز أن مشركه في شيء من ذلك لكان مستحقًا للعبادة معه حاشاه سبحانه. وكذلك كل من وحد الله في إلهيته وربوبيته فلا بد أن يعتقد اختصاصه بما له من الأسماء الحسنى والصفات والعلى التي لا تنبغي إلا له فلا يجعل له شبيهًا فيها.

وينبغي أن يعلم أن التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه ينقسم من ناحية أخرى إلى قسمين:

توحيد الإثبات والمعرفة ويسمى التوحيد العلمي الخبري، وتوحيد في القصد والطلب ويسمى التوحيد الإرادي الطلبي . فالأول: يتعلق بإثبات حقيقة ذات الرب سبحانه وصفاته، وأفعاله واسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله كما أخبر بذلك عن نفسه وكما أخبر عنه رسوله ﷺ .

وإنما سمي هذا النوع من التوحيد العلمي أو الخبري لأنه لا يقصد منه إلا مجرد العلم بالله عز وجل وأسمائه وصفاته والإخبار بها عنه كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ - ﴿ اللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥]

وقوله في سورة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ ﴾ [آل عمران: ١، ٢]﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨ ﴾ [آل عمران:١٨].

وقوله في أول سورة الحديد: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ [الحديد:١، ٣].

وقوله في آخر سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤ ﴾ [الحشر:٢١-٢٤].

وقوله تعالى في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤ ﴾ .

وأما الثاني؛ أعني التوحيد في القصد والطلب فمعناه إخلاص النية لله عز وجل وتمحيض القصد له فلا يريد بعمله وقوله إلا وجه الله ولا يبتغي إلا ثوابه ورضاه فيكون الله عز وجل هو مطلوبه ومقصوده في عبادته وتكون إرادته متجردة من شوائب التعلق بغيره.

وقد جاء القرآن الكريم بإثبات هذا النوع من التوحيد والدعوة إليه كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٦٤ ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقوله في أول سورة الزمر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢،٣].

وقوله في أواخر سورة الزمر: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝﴾ [المزمر:٦٤،٦٦].

وكما كانت سورة الإخلاص نصًّا في التوحيد العلمي فقد جاءت سورة (الكافرون) نصًّا في التوحيد القصدي .

ولهذا ورد أن النبي ﷺ كان يقرأ بهما في سنة الفجر وسنة المغرب وبالجملة فغالب سور القرآن بل كلها متضمنة لهذين النوعين من التوحيد ـ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري ـ وأما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل لهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة وهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يفعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم والله تعالى أعلم.

والآن قد وضح لك أيها القارئ الكريم معاني التوحيد الثلاثة التي هي توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وكيف أن هذه المعاني وإن كانت متغايرة بحسب مفهوماتها فهي متلازمة عند العقل.

كما تبين لك أن توحيد الإلهية هو أهمها جميعًا لأنه التوحيد الذي يتعلق بحق الله على عباده في أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ولأنه متضمن للنوعين الآخرين، أو يستحيل كما قدمت أن يفرد بالعبادة والتقديس إلا من كان منفردًا بالخلق والملك والتدبير.

وكان منفردًا أيضًا بما هو ثابت له من صفات الكمال ونعوت الجلال، ولأنه أيضًا التوحيد الذي ينقسم إلى القسمين اللذين ذكرتهما لك آنفًا، أعني توحيد الإثبات والمعرفة وتوحيد القصد والطلب، وأما غيره فلا يكون إلا من قبل القسم الأول فقط.

أقول: إذا كانت هذه المقدمات كلها قد أصبحت واضحة في ذهنك بحيث يسهل عليك الفرق بين هذه المعاني ولا يشتبه عليك أحدها بالآخر، فسأحاول هنا إن شاء الله أن أقفك على الطرق التي سلكها القرآن الكريم في إثبات النوع الأول والأهم من التوحيد، وهو توحيد الإلهية، وهذه الطرق يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً: من المعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ وأمر بقتالهم، كانوا يقرون بتوحيد الربوبية كما حكى ذلك القرآن عنهم

في مثل قوله تعالى من سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

وفي مثل قوله من سورة المؤمنون: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤،٨٩].

وفي مثل قوله من سورة لقمان: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان: ٢٥].

والقرآن الكريم يؤاخذهم بهذا الإقرار في قوة ويعيب عليهم أنهم مع إقرارهم بأن الله هو رب كل شيء وخالقه ومليكه، وأنه المدبر للأمور كلها يجعلون له

أندادًا يساوونها به في استحقاق العبادة مع علمهم بأنها لا تخلق شيئًا ولا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا .

فهو يتخذ من توحيد الربوبية الذي يقرون به دليلاً على توحيد الإلهية الذي ينكرونه ويصرف القول في هذا الباب تصريفًا عجيبًا يحمل القوم حملاً على الإقرار بقضية التوحيد ويعلق القلوب تعليقًا بهذا الخالق المنعم الرحمن الرحيم حتى تؤلهه وحده محبة وتعظيمًا وإجلالاً وخوفًا ورجاءً وإنابة واستكانة وتضرعًا ودعاءً وتوكلاً واستعانة، ساخرة كل السخرية من هذه الآلهة المزعومة التي لا تملك شروى نقير، وإليك بعض النماذج من هذا الباب.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢١،٢٢].

وقال من السورة نفسها: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال في سورة الأنعام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأنعام:١،٣].

وقال في هذه السورة أيضًا: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٤].

وقال فيها كذلك: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام:٩٥،٩٩].

ويطول بي القول جدًّا لو حاولت استقصاء كل ما في القرآن الكريم في هذا الباب ولكني أحيلك أيها القارئ على بعض السور التي يكثر فيها إيراد مثل هذه الأدلة العظيمة التي تصرخ في وجوه أهل الشرك والوثنية وتبرزهم في صورة من السفاهة والجهل لا يرضاها عاقل لنفسه.

فاقرأ هذا إن شئت في مثل سورة يونس وهود والرعد والحجر والنحل والأنبياء والمؤمنون والفرقان والعنكبوت والروم وفاطر والزمر وحم السجدة والزخرف وق والواقعة وعم والنازعات وغيرها في القرآن كثير.

قلت في الكلام السابق أن القرآن الكريم يسلك بالناس مسلك التقرير والإلزام في دعوتهم إلى توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله عز وجل بالخلق والرزق والملك التدبير ويجعله دليلاً على استحقاقه وحده للعبادة.

وسقت كثيرًا من الآيات التي توضح هذا المنهج ثم أحلت القارئ إلى بعض السور التي توجد فيها مثيلات هذه الآيات ليزداد معرفة بهذا الأسلوب القرآني الكريم.

وأنتقل بعد ذلك إلى أسلوب آخر من أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية.

وهو تصويره لهذه الآلهة المزعومة في صور قوية أخاذة تظهر حالها الشنيعة وما هي عليه من النقص والعجز والذلة والمهانة، فهي لا تخلق شيئًا ولا تدبر أمرًا ولاتملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا بل هي عند الموازنة قد تنقص حالها عن حال العابدين لها فكيف يرضى إذًا عاقل لنفسه أن يعبد من هو أسوء منه حالاً وأهون شأنًا، وأن يذل ويخضع لمن هو في نفسه خاضع ذليل، وأن يدعو ويسأل من لا يملك أن يستجيب له بشيء وأن يتزلف ويتقرب إلى من لا تفيد عنده الزلفى ولا رغب لديه ولا رهب.

وأني له ذلك وهو جماد ميت لا حس ولا حركة ولا سمع ولا بصر، وكيف يبلغ السخف بالعقول أن تعتقد أن لهؤلاء الموتى قدرة بها يفعلون ما لا يقدر عليه البشر.

وأن فيهم حياة بها يحسون بمن دعاهم أو استغاث بهم وهم لم يروا أحدًا منهم خرج من قبره مرة فمشى بينهم، ولا كلموا أحدًا منهم مرة فجاءهم رجع الجواب، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وكما يصور القرآن الكريم هؤلاء المعبودين بتلك الصورة الشنيعة التي تنفر كل ذي عقل ممن كرمت عليه نفسه أن يقصدهم بحاجة أو يشعر نحوهم بشيء من الرهبة أو يخشى على نفسه غضبهم ونقمتهم . كذلك يصور العابدين لهم بصورة يربأ كل عاقل كريم أن يكون عليها، صورة يتصل فيها الغباء والجهل والضلال والحمق والظلم والافتراء، بل الإجرام والتجني.

يقول تعالى في سورة المائدة منكرًا على من عبد المسيح وأمه من النصارى:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٥،٧٧].

ففي هذه الآيات ينفي الله عز وجل عن المسيح عبده ورسوله وعن أمه مريم الصديقة الإلهية بدليل أنهما كانا يأكلان الطعام فاحتياجهما إلى الطعام لدفع غائلة الجوع ثم احتياجهما بعد ذلك لإخراج الأذى المتخلف عن الطعام دليل النقص.

والنقص ينافي الألوهية ثم يأمر رسوله ﷺ أو كل أحد أن يعجب من حال هؤلاء في انصرافهم عن الحق بعد بيان الآيات ووضوحها، ثم ينعي عليهم عبادة مالا يملك لهم شيئًا من الضر ولا من النفع ثم يخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة لأنه السميع لأقوال عباده العليم بنياتهم وأعمالهم ولا يكون إلهًا إلا من كان سميعًا عليمًا.

ويقول سبحانه في سورة الأعراف في آخرها: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف:١٩١،١٩٨].

فهل رأيت أيها القارئ الكريم صورة أخزى وأشنع من تلك التي تصور بها هذه الآيات حال هذه الآلهة الباطلة في عجزها وجهلها ونقصها **فهي: أولاً:** لا تقدر أن تخلق شيئًا حتى ولا مثقال ذرة، بل هي في ذاتها مخلوقة محتاجة إلى من يعطيها خلقها، فكيف تعطي الخلق لغيرها؟ وهل يعطي الشيء فاقده؟.

ثم هي ثانيًا: لا تستطيع نصرًا لعابديها فلا قوة لها تمنعهم بها من عدوهم ولاتدفع عنهم عذاب الله إن نزل بهم.

ثم هي ثالثًا: لا تستطيع نصر نفسها ولا تملك أن تدفع أي أذى لحق بها فلو قام الناس على هذه القباب والأضرحة فهدموها وأزالوها وجردوا هذه القبور من كل حلية حلوها بها ومن كل مظهر شركي كاذب زينوها به، فهل تستطيع أن تمتنع عليهم؟ وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

ثم هي رابعًا: لا تسمع من دعاها إلى الهدى ولا تستجيب له فسواء عليه أدعاها أم سكت، وكيف يجيب إلى الهدى من لا يسمع ولا يعي وهو خال من الإدراك والحياة.

ثم هي بعد ذلك عباد لله أمثال العابدين لها وليس من المعقول أن يعبد عبد عبدًا مثله. أو يستجيب عبد لعبد مثله، ولهذا قال: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف:١٩٤]

ثم نزل بهذه الآلهة المزعومة إلى أبعد حد من النقص والهوان فنفى عنها الأرجل والأيدي والأعين والآذان، ثم أمر رسوله ﷺ أن يتحدى هؤلاء المشركين وآلهتهم بأن يكيدوا له شيئًا من الكيد دون تريث وأمهال .

كما قال نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس:٧١]

وكما قال هود لقومه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود:٥٤-٥٥]

ثم أعلن فيهم أن وليه وناصره هو الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين من عباده ولكن ما يدعونهم من دونه لا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون، وإن دعوا إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك بأبصار كاذبة صنعها عابدوهم وهم في الواقع لا يبصرون.

وهكذا ترسم لنا هذه الآيات الكريمة أروع صورة لهذه الآلهة تنفي عنها كل ما يزعمه العابدون لها حتى لا تبقى لأحد شبهة في الجري وراء هذه الأوهام الكاذبة التي صورت لهم أصحاب هذه القبور في صورة أبطال الأساطير.

وقفت في المقال السابق عند إيراد بعض الآيات الكريمة التي تصور تلك الآلهة المزعومة في أبشع صورة من الجهل والنقص والعجز والمهانة لتستثير في النفس البشرية معاني الكرامة التي فقدتها ولتوقظ العقل الإنساني الحالم من ذلك النوم الطويل الذي ضرب عليه.

وقلت: إن هناك من الآيات ما يعني بتصوير حال العابدين أنفسهم وما هم فيه من إغراق في الوهم وإمعان في الضلال حين يتوجهون بالعبادة والخضوع لآلهة من الموتى والحجارة يعلمون أنها صماء بكماء لا تسمع من يدعونها فضلًا عن أن تستجيب لهم ولا تملك شيئا مما يسألونها إياه من رزق أو نصرة أو شفاء.

وأريد الآن توفية للموضوع أن أورد ما بقي من هذه الآيات، وتلك على قدر الجهد فعسى أن ينفع الله عز وجل بها أولئك الذين لا يزالون عاكفين على أصنامهم يتمرغون على أعتابها ويوسعونها لثمًا بالشفاه ومسحًا بالأيدي، ضراعة وذلاً وتملقًا واستجداء. ولعل بصيصًا من نور هذه الآيات ينفذ إلى قلوبهم فيرد إليها ما فقدته من حياة وعافية.

يقول الله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس:١٨].

فهذه الآية الكريمة توبخ أشد التوبيخ من يعبد هذه الآلهة حتى على سبيل الاستشفاع بها إلى الله عز وجل وهذا ما يدعيه أكثر الناس اليوم حين ينكر عليهم أهل الحق صنيعهم ويضيقون عليهم الخناق يقولون: إنما نتخذها وسائط تبلغ حوائجنا إلى الله وتشفع لنا عنده، نفس ما كانت الجاهلية الأولى تفعله.

ويقول سبحانه في نفس السورة: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦].

فأي وعيد أبلغ من هذه الآية التي تسجل الظلم على رسول الله ومصطفاه إن هودعا من دون الله أحدًا، أو جعل له من عباده ندًا؟ وما كان لرسول الله ﷺ أن يفعل ولكنه تحذير لأولئك المفتونين حتى لا يغتروا بما يزعمونه لآلهتهم من جاه ومنزلة. فإنهم إذا علموا أن مقام الرسالة نفسه لا يشفع لصاحبه عند الوقوع في حماقة الشرك وأن وعيد الله جدٌّ لاحق بكل من عبد غيره أو دعاه أيأسهم ذلك عن الطمع في شفاعة آلهتهم وعلموا أنها لن تغني عنهم من الله شيئًا.

ويقول جل شأنه حكاية عن هود عليه السلام حين خوفه قومه نقمة آلهتهم وقالوا له: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ ﴾ [هود: ٥٤]

فأجابهم بلهجة الخبير بحال هذه الآلهة وأنها لا تملك أن تناله بأقل أذى وأنه متوكل على ربه الذي بيده نواصي الخلق كلهم، واثق من نصره وتأييده: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ ﴾ [هود:٥٤،٥٦].

يقول تعالى في سورة الرعد: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ۝ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ۝ ﴾ [الرعد:١٤،١٦].

والمتأمل في هذه الآيات الثلاث يجدها قد بلغت الغاية في بيان زيف هذه الآلهة الباطلة عند مقارنتها بالإله الحق وأنها لا تملك من مقومات الإلهية شيئًا، فهو

وحده الحقيق بأن يدعى ويرغب إليه لأنه هو الحي القيوم السميع البصير الذي يملك أن يستجيب لمن دعاه. وأما ما يدعى من دونه فهو في غفلة عمن دعاه لا يسمعه ولا يراه ولا يقدر أن يستجيب له بشيء. وما أروع تشبيه من يدعو غير الله أو يسأله برجل بسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه.

ثم هو وحده الذي يخضع له كل من في السموات والأرض وينقادون لحكمه طائعين أو مكرهين لا يستطيع أحد منهم أن يخرج عن أحكام ربوبيته وقهره. وهو وحده رب السموات والأرض باعتراف هؤلاء المشركين أنفسهم.

فكيف يتخذون من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا. وكيف يجعلون له شركاء من خلقه، فهل رأوهم خلقوا شيئًا فتشابه الخلق عليهم، كلا بل هم يعلمون أن الله وحده هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار.

ويقول سبحانه في سورة النحل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

فتأمل هذه الأوصاف الثلاث التي أجراها الله عز وجل على ما دُعي مِنْ دونه فهم أولاً لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، وهم ثانيًا أموات غير أحياء .وهم ثالثًا لا يشعرون أيان يبعثون. فمن كان على هذه الصفة من كونه مخلوقًا وميتًا وغافلاً لا يدري متى يبعث كيف يجوز أن يدعى ويسأل.

ولا يستطيع القبوريون أن يدعوا أن هذه الآية في حق الأصنام التي هي خشب وحجارة. بل هي في شأن الموتى من الأنبياء والصالحين بدليل قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ فإنه لا معنى لوصف الأصنام بذلك إذ ليس من شأنها الحياة والشعور.

ويقول سبحانه من هذه السورة نفسها: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ

عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل:٧٥،٧٦].

فهذان مثلان ضربهما الله عز وجل لنفسه ولما يعبد من دونه، فهو في الأول يشبهه بعبد مملوك لا يقدر على شيء، فكيف يستوي هو ومالك غني ينفق كيف يشاء؟.

وفي الثاني يشبهه برجل أبكم لا يقدر على شيء وهو مع ذلك عالة على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، فكيف يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟

ويقول تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٥٦،٥٧].

نزلت هذه الآيات فيمن كانوا يدعون المسيح وأمه وعزيرًا والملائكة، قيل لهم إن هؤلاء مهما دعوتموهم فلا يملكون إزالة الضر عنكم ولا تحويله إلى غيركم وهم مع ذلك عباد مثلكم يبتغون ما يقربهم إلى الله عز وجل ويرجون رحمته كما ترجون، ويخافون عذابه كما تخافون.

ويقول جل شأنه في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

فإذا بلغت هذه الآلهة من العجز أنها لو اجتمعت على خلق ذبابة لا تقدر عليها بل حتى لو سلبها الذباب شيئًا لا تستطيع استنقاذه منه، فكيف يليق بعاقل بعد ما عرف من عجزها وهوانها أن يذل لها ويخضع، أو أن يتوجه إليها طالبًا سائلاً.

ويقول سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١].

فهل رأيت العنكبوت في ضعفه وحقارته، وهل نظرت إلى بيته في رقة نسجه ووهن خيوطه بحيث لا يمنع حرًا ولا بردًا، ولا يحمي من أذى.

فهذا مثل ضربه الله لمن يتخذهم الناس أولياء من دونه، فإذا كان بيت العنكبوت يغني عمن يلجأ إليه شيئًا أمكن أن يغني هؤلاء عن عابديهم.

ونكتفي بهذا القدر الذي نعتقد أن فيه الكفاية لمن طلب الهدى والله الهادي إلى سواء السبيل.

تكلمت عن بعض أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى توحيد الإلهية الذي هو الأساس الأول لجميع الرسالات السماوية والذي يقوم ـ كما قدمنا ـ على إفراد الله عز وجل بالعبادة والتقديس وإخلاص الدين له وحده وعدم صرف شيء من العبادات التي شرعها لعباده وأمرهم أن يتقربوا بها إليه لأحد غيره كائنًا من كان.

وأريد الآن أن استكمل بقية هذه الأساليب القرآنية في الدعوة إلى هذا النوع من التوحيد قبل الأخذ في بيان متعلقاته من صور العبادات المتنوعة.

ثم بيان ما يضاده وينافيه من ألوان الشرك المختلفة، فمن هذه الأساليب ما يجريه الله تبارك وتعالى على نفسه من أسماء وصفات يعلم المشركون أن آلهتهم التي يدعون من دون الله لا تسمى بها ولا تتصف بشيء منها، فاختصاصه سبحانه بهذه الأسماء والصفات التي لا تنبغي إلا له.

والتي لا يكون إلهًا إلا من اتصف بها، دليل على استحقاقه وحده للعبادة والتقديس.

فمن ذلك قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

فبعد أن ذكرت الآية قضية التوحيد، أردفتها بذكر اسمين من أسمائه تعالى، وهما الرحمن الرحيم، ليكون هذان الاسمان بمثابة الدليل عليها.

ولا شك أن ما يفيده اقتران هذين الاسمين الكريمين من الرحمة الواسعة التي اتصف بها سبحانه، والتي رحم بها عباده من خصائصه التي لا يشاركه فيها غيره.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فانظر كيف صدرت هذه الآية العظيمة هذه بكلمة التوحيد « لا إله إلا الله هو» ثم أجرت عليه سبحانه بعد ذلك جملة من الأسماء والصفات في النفي والإثبات يصلح كل منها وحده ليكون دليلاً على وحدانيته.

فذكرت أولاً أنه الحي القيوم، أي: المتصف بالحياة الذاتية الكاملة التي هي من لوازم ذاته لم يستفدها من غيره.

فهي لهذا أبدية دائمة لا يلحقها موت ولا فناء.

والمتصف بالقيومية الشاملة التي هي قيامه بنفسه واستغناؤه عن غيره من كل وجه مع قيام غيره به، بحيث لا يستغني عنه لحظة.

لأنه فقير إليه فقرًا ذاتيًا لا غنى معه أبدًا، وقد ذكر العلماء أن اقتران هذين الاسمين الكريمين في هذا الموضع وغيره من القرآن كما في أول سورة آل عمران، وكما في سورة طه، لتضمنهما جميع صفات الكمال الذاتية والفعلية.

فصفة الحياة تقتضى للمتصف بها صفات من العلم والقدرة والإرادة، والسمع والبصر والكلام.

وغير ذلك مما تعتبر الحياة شرطًا فيه، بحيث لايوجد شيء منها إلا مع الحياة ولا توجد هذه الصفات جميعها على أكمل وجه إلا فيمن كانت حياته أكمل حياة، وكذلك صفة القيومية تقتضي للمتصف بها من كمال الفعل وتمام التدبير، وسمو الحكمة وحسن الرعاية والكلاءة مالا يمكن أن تتم القيومية بدونه .

فكمال حياته وقيوميته سبحانه مستلزم لكماله في جميع ماله من صفات الكمال في الذات وفي الفعل، ولهذا ورد أنهما اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب.

ثم نفت الآية عنه سبحانه ما ينافي كمال قيوميته من السنة والنوم، والسنة: النعاس الذي هو أول النوم، فهي لا تستغرق الحس كما يستغرقه النوم، ثم أخبرت عن تمام ملكه وشموله لجميع العوالم العلوية والسفلية، فقالت: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

ولكن تمام الملك يقتضي أن لا يكون لأحد معه شركة أصلاً بشفاعة ولا معاونة ولا مشاورة ولا غيرها.

فنبهت الآية على ذلك بنفي الشفعاء الذين يشفعون عنده بغير إذنه وأوردت ذلك النفي في أسلوب إنكاري صريح يقطع أطماع القبوريين، فقالت: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾

ولما كان موجب الشفاعة هو جهل المشفوع عنده بحال المستشفع بحيث يحتاج إلى من يُعّرفه حاله ويبين له من أمره ما يقتضي قبول شفاعته فيه.

فقد نزهت الآية ربنا سبحانه عن حاجته إلى شفاعة شافع من جهل، فذكرت من تمام علمه بالأمور كلها مستقبلها وماضيها وحاضرها وظاهرها وخافيها وحسيها ومعنويها ما لا يمكن معه أن يخفى عليه حال أحد من هؤلاء المستشفعين إليه.

وعلى هذا فلا شفاعة عنده إلا بإذنه ، وإلا لمن رضي قوله وعمله، ثم نبهت الآية على قلة علوم العباد إذا قيست إلى علمه تعالى فهي لا تعدو أن تكون قطرة في بحر.

وهم لا يتوصلون إلى شيء من العلوم الدينية أو الكونية إلا بما شاء هو أن يعلمهم إياه مما يهيئ لهم أسبابه ويهديهم إلى طرقه من الفكر والاستنتاج والتجربة ثم دلت على سعة ملكه وعظيم سلطانه بسعة كرسيه وإحاطته بالسموات والأرض حتى كأنها في جوفه كحلقة ملقاة في فلاة كما ورد بذلك الحديث.

ثم ختمت الآية العظيمة بذينك الاسمين الجليلين وهما ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ فأفادت علوه المطلق على سائر خلقه من كل وجه، فهو علو الذات، وعلو القدرة وعلو القهر.

كما أفادت عظمته التي لا حد لها، والتي يتضاءل ويصغر أمامها كل عظيم.

وهكذا تشتمل سيرة آي القرآن على هذه الطائفة من الأسماء والصفات الكريمة التي لا توجد في آية غيرها.

والتي يصلح كل واحد منها لأن يكون وحده برهانًا كافيًا على انفراده عز وجل باستحقاقه العبادة والتقديس، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وهكذا جعل القرآن الكريم اختصاصه سبحانه بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا شاهد صدق وبرهان حق على ما دعت إليه رسله عليهم الصلاة والسلام من وجوب توحيده وإخلاص الدين كله له، فله يسلمون وجوههم وإليه يفزعون في كل ما ينوبهم ويكون له وحده خضوعهم وضراعتهم.

فهو الإله المألوه وحده الذي تألهه القلوب محبة وخوفًا ورجاء وإنابة وذلاً واستكانة ورغبة ورهبة وتوكلاً واستعانة وسؤالاً ودعاء وتوبة وإنابة، وحلفًا ونذرًا وذبحًا، إلى غير ذلك من أنواع العبادات التي هي حقه على عباده والتي سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله . والله ولي التوفيق.

الآن وقد انتهيت ـ تقريبًا ـ من ذكر صور الأدلة وأنواع البراهين التي يسوقها القرآن الكريم على توحيد الربوبية ببيان أن هذا الإقرار برب واحد منفرد بالخلق والرزق والتدبير والملك والإحياء والإماتة والتصوير والإبداع وما إلى ذلك من شئون الربوبية المطلقة التي تشمل كل شيء وتنظم جميع العالم علويه وسفليه.

كان هذا الإقرار يقتضيهم لو أنهم أنصفوا من أنفسهم ولم يركبوا متن الشطط والجور ولم يمعنوا في السفه والضلال أن لا يجعلوا مع الله إلهًا آخر يشركونه به فيما هو محض حقه من العبادة في جميع صورها قلبية كانت أو قولية بدنية أو مالية.

ولكن توحيد الربوبية نفسه الذي جعل دليلاً على توحيد الإلهية رغم أنه مركوز في الفطر ومستقر في أذهان العقلاء حتى أنه لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال إن للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال قد يحتاج إلى تنبيه يزيل ما عسى أن يقع فيه من الخفاء والاشتباه لا سيما وقد ضلت فيه بعض الطوائف كالثنوية من المجوس والمانوية القائلين بصدور العالم عن خالقين هما النور فاعل الخير وخالق الحيوانات النافعة والظلمة فاعلة الشر ومصدر الحيوانات المؤذية والشياطين الشريرة.

وكذلك النصارى القائلون بالتثليث يجعلون الآلهة الخالقة ثلاثة، وإن كان المتأخرون منهم يحاولون تفسير الأقانيم الثلاثة بأنها خواص أو صفات لإله واحد. وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئًا من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك.

لهذا لم يفت القرآن الكريم أن يؤكد هذا المعنى الفطري ويزيده تثبيتًا بإيراد الأدلة القاطعة على وحدة الخالق جل وعلا وانفراده بالربوبية المطلقة.

والآية الفذة في هذا الباب هي قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:٩١].

يقول الشيخ شارح الطحاوية بعد إيراد هذه الآية الكريمة: (فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلاً يوصل إلى عباده النفع ويدفع عنهم الضر فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرض تلك الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه إذا لم يقدر المنفرد منه على قهر الآخر والعلو عليه.

فلابد من أحد ثلاثة أمور:

١- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

٢- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

٣- وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه بل يكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره أول دليل على أن مدبره إله واحد وملك واحد ورب واحد لا إله للخلق غيره ولا رب لهم سواه.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

غير أن هذه الآية الأخيرة ليست في بيان توحيد الربوبية كما ظن كثير من المتكلمين من الأشعرية وغيرهم وإنما هي في توحيد الإلهية فإنه سبحانه أخبر أنه

لو كان فيهما آلهة غيره ولم يقل أرباب وأيضًا فإن هذا فساد بعد الوجود والمعنى لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا بعد الوجود.

والمعنى لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا ولو كانت في توحيد الربوبية لقال لم توجدا .

فالآية إنما دلت على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة بل لا يكون الإله إلا واحدًا وإن فساد السموات والأرض واختلال أحوالهما يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله إنما هو بالعدل وبه قامت السموات والأرض وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك وأعدل العدل التوحيد.

والمتكلمون يعتمدون إثبات توحيد الربوبية على دليل يسمونه دليل التمانع ويزعمون أنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ولكنك قد علمت مما سبق أن الآية في توحيد الإلهية.

وخلاصة هذا الدليل كما جاء في كتبهم أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريدأحدهما تحريك جسم ويريد الآخر تسكينه فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين.

والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع ويستلزم أيضًا عجز كل منهما والعاجز لا يصلح إلهًا.

وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر وهو الفرض الثاني كان هذا الذي حصل مراده هو الإله القادر وكان الآخر عاجزًا لا يصلح للإلهية.

وهذا الدليل وإن كان صحيحًا في ذاته مثبتًا للمطلوب إلا أن الدليل الذى قررناه أخذًا من الآية الكريمة ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾

أقوى منه وأقرب إلى الواقع الملموس فإنه يدل على أن الاتفاق بين الآلهة مستحيل وإنه لن يكون منهم إلا أحد أمرين إما ذهاب كل بما خلق حال عجز كل منهما عن قهر الآخرين وإما علو بعضهم على بعض حال ظهور أحدهم وتفوقه في القدرة على غيره والله أعلم.

فرغت الآن من إيراد الأدلة المثبتة لتوحيد الإلهية من القرآن الكريم وبينت أن من أبرز تلك الأدلة ما يسوقه القرآن من مظاهر الربوبية المطلقة التي تتمثل في انفراده تعالى بخلق الأشياء جميعًا وتدبير الأمر كله بحيث لا يكون لأحد معه شركة أصلاً لا في خلق شيء ولا في تدبير أمر كما قال جل شأنه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

وآخذ الآن إن شاء الله في بيان حقيقة هذا التوحيد وبيان العناصر التي تتألف منها هذه الحقيقة، ثم بيان ما يبطلها وينافيها من ألوان الشرك المختلفة.

فحقيقة توحيد الإلهية مختص به لا يشاركه فيه أحد كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾
[آل عمران:١٨].

وكما قال جل شأنه في سورة محمد عليه السلام ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وأما حقيقته في القصد والطلب فهو أن لا يقصد المرء بشيء من عبادته إلا وجه الله عز وجل وأن يخلص له النية في جميع أقواله وأفعاله وأن لا يشرك معه أحدًا من خلقه فيما تعبده به .

وهذا القسم من توحيد الإلهية هو معظم ما يقع فيه النزاع بين أهل الحق من أنصار السنة المحمدية وبين خصومهم من القبوريين والصوفية والشيعة وغيرهم.

والسبب في ذلك هو جهل هذه الطوائف المبتدعة الشركية بمفهوم العبادة التي لا تنبغي إلا لله، وجهلهم كذلك بإفراد العبادات التي تدخل تحت هذا

المفهوم، فتراهم يفعلون كثيرًا منها لغير الله دون أن يفطنوا إلى ما في ذلك من مزالق الشرك الأكبر والخروج عن حظيرة التوحيد.

فالعبادة اسم جامع لكل ما تعبد الله به عباده مما يحبه ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة التي شرع لهم أن يتقربوا بها إليه ويخصوه وحده بها. وإفراد العبادة التي تندرج تحت هذا المعنى الكلي كثيرة ولكن يمكن مع ذلك ضبطها بتقسيمها إلى أربعة أقسام أولية.

هي: العبادات القلبية والقولية والبدنية والمالية. ونأخذ بعد ذلك في بيان القسم الأول وهو العبادات القلبية المتعلقة بالقلب والتي تعتبر أساسًا لما سواها من العبادات.

فأهم هذه العبادات وأولها العبادة بالحب، وهو أن يحب العبد ربه حبًا يملأ أقطار نفسه ويملك شغاف قلبه بحيث لا يكون أحد من الخلق أحب إليه من ربه، بل ولا مساويًا له في الحب.

فلا يحب مع الله غيره لأن هذه المعية تفهم الشركة والمساواة ولكنه يحبه في الله ولله كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: إن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار** »[1].

وقد نعى الله على المشركين أنهم يحبون آلهتهم حبًا مساويًا لحبهم لله فقال في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

ومن علامات حب العبد لربه جل وعلا أن يعظم أمره ونهيه وأن يكون ما يحبه الله ويرضاه آثر لديه من كل ما يحبه هو ويهواه من مال وولد وأهل وعشيرة ومسكن وتجارة.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).

بل ومن نفسه التي بين جنبيه فهو يجود بها لله عند الاقتضاء قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال في سورة براءة متوعدًا المتقاعدين على الهجرة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

ومن علاماته كذلك: الغيرة على دين الله عز وجل بحيث يفرح إذا عمل بطاعة الله، ويحزن قلبه ويغضب إذا انتهكت حرمات الله وارتكبت معاصيه لعلمه بأنها مكروهة لله، ومن شأن المحب أن يكره وقوع ما يكرهه محبوبه.

ومنها: أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا من والى الله، ولا يعادي إلا من عادى الله، فإن من أحب أحدًا فإنه يحب كل من يتصل به ويواليه ويبغض كل من يشنأه ويعاديه.

ومحال أن يكون حب العبد لربه صادقًا إذا كان يبغض أحدًا ممن يعلم أن الله عز وجل يحبهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، أو كان يحب أحدًا ممن يعلم أن الله يبغضهم ممن حادّوا الله ورسوله وعاندوا آياته واستكبروا في أرضه بغير الحق من مثل فرعون وقارون وهامان وأبي جهل وإبليس وغيرهم.

ولهذا جاهر الخليل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه بالعداوة لما علم إصرارهم على كفرهم وقال لهم هو ومن معه من المؤمنين ما حكاه الله عز وجل في سورة الممتحنة بقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

وبالجملة فالحب الصادق هو الذي يقتضي هذه الأمور كلها.

أما من يدعي حب الله عز وجل وهو يجترىء على معاصيه أو يقصر في فعل ما يحبه من الواجبات والمستحبات أو لا يشعر قلبه بالغيرة إذا انتهكت حرمات الله

كهؤلاء الدجالين من الصوفيه الذين يزعمون أنهم بلغوا من محبة الله منصبًا سقطت عنهم فيه التكاليف وأبيحت لهم المحرمات ويرضون عما يقع من الفواحش والمظالم بدعوى أنها واقعة بمشيئة الله، يضاهئون بهذا قول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]إلى غير ذلك مما لبس عليهم في الشيطان.

فهؤلاء لا يصدقون في دعوى الحب فقد كذب الله قومًا ادعوا محبته وهم لا يعملون بطاعته ولا يتبعون رسوله.

فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:٣١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة العبودية:

«والعبادة أصل معناه الذل أيضًا، يقال طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هو التتيم.

وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق وآخرها التتيم.

يقال تيم الله أي عبد الله.

فالمتيم المعبد لمحبوبه، ومن خضع لإنسان مع بغضه له فلا يكون عابدًا، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له كما قد يحب ولده وصديقه ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء ،بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، فكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً».

فالحب وحده لا يحقق معنى العبادة بل لابد معه من كمال الذل والخوف والرجاء، وفي ذلك يقول بعض السلف:

« من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، والمؤمن هو الذي يجمع بين الحب والخوف والرجاء».

تكلمت في الحديث السابق عن الحب كأساس من أسس العبادة القلبية وقلت إن الحب وحده لا يكفي بل لا بد معه من كمال الذل لله وكمال الخوف منه، فلا تصح العبادة إلا إذا قامت على هذين الركنين.

أعنى كمال الحب وكمال الذل والخوف وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون خشيته منه ولا سيما معرفته بماله من صفات الجبروت والقهر والبطش والانتقام فتمثل العبد لهذه الصفات وتذكره لآيات الوعيد الواردة في القرآن الكريم مع شهوده لآفات عمله وعيوب نفسه يولد في نفسه الخشية من الله جل وعلا حتى لا يكون شيء أخوف منه عنده بل حتى يخافه وحده ولا يخاف غيره.

قال تعالى ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فجعل الخوف منه وحده علامة الإيمان وشرطه ومدح رسله عليهم الصلاة والسلام بأنهم يخشونه ولا يخشون غيره.

فقال جل شأنه﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

وجعل الخشية منه سبحانه مقصورة على أهل العلم به.

فقال:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال في شأن زكريا عليه السلام وأهله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠]

وقال في وصف المؤمنين:﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٦، ١٧].

ولما فصل الله حالى الفريقين من أهل الجنة وأهل النار جعل خوف مقامه في مقدمة صفات أهل الجنة.

فقال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن:٤٦].

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ۝١٩ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد:١٩،٢١].

وقال جل شأنه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ ۝٤٨ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء:٤٨،٤٩].

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ ﴾ [المؤمنون:٦٠].

سألت عائشة رسول الله ﷺ عن هؤلاء هل هم الذين يزنون ويسرقون إلخ.

قال لها:«**لا يا ابنة الصديق بل هم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخشون أن لا يتقبل منهم**»[1]

ويطول بنا القول إذا حاولنا استقصاء ما في الكتاب العزيز من الآيات الواردة في مدح الخوف والخائفين وما أعد الله لهم من الزلفى والكرامة عنده.

وقد كان الرسول ﷺ المثل الأعلى والقدوة الكاملة في هذا الباب فقد روت عنه عائشة رضي الله عنها أنه كان إذا هبت الريح أو رأى مخيلة في السماء تغير لونه ودخل وخرج وبدا عليه القلق حتى يعرف ذلك في وجهه.

ولما أخذ الفداء من أسرى بدر بمشورة أبي بكر ﷺ ونزلت الآيات تعاتبه على ذلك: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ

---

(١) ذكره عبد الله ابن الزبير في المسند (١/ ١٣٢)، ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٤٩).

عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٧،٦٨]

دخل عليه عمر رضي الله عنه فوجده هو وأبو بكر يبكيان فقال له: «ما يبكيكما فإن وجدت بكاء بكيت».

فقال له الرسول ﷺ: **«لقد عرض علي عذابكم أدني من هذه الشجرة لو نزل عذاب ما نجا منه إلا عمر»**[1] لأنه لم ير أخذ الفداء وكذلك كان السلف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وأئمة الهدى من بعدهم على سنة نبيهم ﷺ في شدة الخوف من الله ودوام المراقبة له وعدم الأمن من مكره فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ولعلك بعد هذا تدرك فساد مايدعيه بعض ضلال الصوفية من أنهم لا يعبدون الله خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته ولكن يعبدونه لذاته.

فهؤلاء لم يرضوا لأنفسهم حتى مقام الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل ذهب بهم الغرور الصوفي إلى أن يفتروا على الله الكذب ويهملوا عبادة من أحب العبادات إلى الله جل وعلا هي عبادته بالخوف والرهبة.

وليت شعري ما هذه الذات التي يعبدونها؟ هل هي ذات لا صفة لها؟ أم هي ذات متصفة بما يوجب حبها والخوف منها والرجاء فيها إلى غير ذلك مما يعرفه العالمون بالله جل شأنه.

لا هؤلاء الأدعياء الجاهلون الذين بلغت بهم القحة وسوء الأدب والجرأة على مقام الرب جل شأنه أن يصوروه في صورة الغانيات المعشوقات وأن يسموه تسمية الأنثى من هند ودعد وليلى وسلمى وأن يدعوا الاستغراق في شهود جماله والتلذذ بطيب وصاله وهم مع ذلك لا يرجون له وقارًا ولا عظمة ولا يشعرون عند ذكره بخوف ولا رهبة.

---

(١) أخرجه أحمد مسنده (٢٠٨)، و صححه العلامة الألباني في فقه السيرة (٢٣٦)

قد غرهم بالله الغرور ومد لهم في حبل الغواية والفجور فسبحان الله عما يصفون. وإنما أطلنا الكلام مع هؤلاء لعلمنا أن كثير من الناس يحسن الظن بهم ويخلع عليهم ألقاب الولاية ويسميهم بالواصلين والعارفين مغترًّا بما يظهرون من الوله والوجد ومكابدة الأشواق فيجري معهم فيما جروا فيه فيضل سواء السبيل.

وإذا كان الخوف سوطًا يلهب العبد ويسوقه إلى جادة الطريق بعنف ويكسر من غرور نفسه ويوقظه من رقاد الغفلة وسفه الهوى.

فلابد أن يكون مصحوبًا بالأمل والرجاء في فضل الله ورحمته حتى لا يفضي إلى اليأس والقنوط ولهذا تجيء دائما آيات البشارة مع آيات النذارة، هذه تحدو النفوس وتنشطها وتلك تسوقها وتزجرها. والله الهادي إلى سواء السبيل.

وإذا كانت العبادة لا تصح إلا إذا قامت على هذه الدعامات الثلاث من الحب والخوف والرجاء، فإن هناك دعامة أخرى تعتبر بحق لب العبادة وروحها، وبدونها تفقد العبادة معناها وتكون كالجسد الميت الذي لا روح فيه.بل تكون أقرب إلى النفاق والرياء.

وهذه الدعامة هي الإخلاص الذي يقوم على تمحيض النية لله عز وجل وتجريدها من كل شائبة هوى أو نفع شخصي بحيث لا يريد بعمله إلا وجه الله تعالى ولايكون الباعث له عليه إلا رغبته في ثوابه وخوفه من عقابه وشعوره بحق الله تعالى عليه.

وإذا كان شرط العبادة الظاهر هو أن يصيب بها صاحبها السنة وأن يجيء بها موافقة لما شرعه الله على لسان رسوله ﷺ بلا زيادة ولا ابتداع، فإن الإخلاص هو شرطها الباطن، بل هو قطب رحاها الذي به يثقل ميزانها أو يطيش.

ولهذا جاءت الآيات القرآنية تأمر بالإخلاص وتنوه بشأنه وتحذر مما ينافيه من الرياء والنفاق، وتتوعد عليه بحبوط الأعمال وسوء المآل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾ [النساء:١٤٥،١٤٦].

وقال جل شأنه: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝ ﴾ [الكهف:١١٠]

وقال عز من قائل: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝ ﴾ [سورة البينة:٥]

وقد ورد عن ابن عباس وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾ [هود:١٥،١٦]

أنها نزلت في أهل الرياء. يعطون أجر حسناتهم في الدنيا ولا ثواب لهم عليها في الآخرة لحبوطها بالرياء.

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

وروى أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قلنا بلى قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر الناس إليه**»(٢).

ومن العبادات القلبية بل من أجلها وأعظمها: اليقين، وهو سكون النفس وطمأنينتها بما حصل لها من العلم الذي لا يحول ولا يتغير ولا ينسخه شك أو شبهة، مأخوذ من يقن الماء إذا سكن.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٠٤)، وحسنه العلامة الألباني في سنن ابن ماجه (١٤٠٦).

وقد مدح الله الموقنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [البقرة:٤،٥].

وميزهم بحسن النظر والاعتبار.

فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝﴾ [الذاريات:٢٠]

وجعل لهم الإمامة في الدين فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝﴾ [السجدة:٢٤] .

فأشار بالصبر إلى كمال القوة العملية وباليقين إلى كمال القوة العلمية، فمن كملت فيه هاتان القوتان فقد ترشح لمنصب الإمامة الخطير.

ومنها التوكل: وحقيقته ثقة العبد بكفاية الله عز وجل وحسن تدبيره وعدم وقوفه مع الأسباب وتعلقه بها وإن كان ينبغي إلا يهملها أو يقصر فيها. فإن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب المقدورة للعبد، بل لا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو تواكل وعجز بطالة يأباها الدين.

والتوكل من أحب العبادات إلى الله، وقد مدح الله المتوكلين عليه وأخبر أنه حسبهم وكافيهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]

والحسب الكافي، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ـ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم: ١١،١٢] .

وجعله علامة إيمان العبد وحسن إسلامه. فقال إخبارًا عن موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝﴾ [يونس:٨٤]

وجعله شقيق العبادة ونصف الدين فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال في أم الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

والاستعانة التوكل، وقد أخبر النبي ﷺ أن سبعين ألفًا من أمته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ولما سئل عنهم قال: « **هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون** ».(1)

ومنها الإنابة: وهي الرجوع إلى الله عز وجل بالتوبة بعد الحوبة. وبالذكر بعد الغفلة وبالشكر عند النعمة وبالتسليم عند المصيبة.

وبالجملة فهي فرار العبد إلى مولاه والتجاؤه إليه كما يفر الطفل إلى أمه معتقدًا أن لا ملجأ له من الله إلا إليه، ومتوددًا إلى الله بحسن الإقبال عليه.

قال الله تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [الروم:٣١]

وقال: ﴿وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝﴾ [الزمر: ٥٤].

ومنها الإخبات والاستكانة: وهو تواضع العبد لربه وشعوره بضعفه وحقارته أمام جلال الله وسطوته وعظمته وهيبته.

ومنها دوام مراقبته لله عز وجل وأن يعلم أن الله معه حيث كان، وأنه لا يقول من قول ولا يعمل من عمل إلا كان الله شهيدًا عليه حين يفيض فيه، فيعبد الله كأنه يراه ويستحي منه أن يراه مقصرًا في شيء مما أمره به، أو مقترفًا لشيء مما نهاه عنه، والحياء خير كله وهو شعبة من الإيمان.

وبالجملة فالعبادات القلبية هي كل ما يتعلق بالقلب من معان وأحوال أمر الله بها وتعبد عباده بها، وأثنى على المتصفين بها في كتابه.

فهذه العبادات هي حق لله عز وجل على عباده فلا يجوز أن يصرف العبد شيئًا منها لغير الله مهما كان ذلك الغير.

---

(1) أخرجه البخاري(٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨)

أو يجعل له مع الله شركة فيها فيحبه مثلاً كما يحب الله أو يخافه كما يخاف الله أو يعظمه كما يعظم الله، وإلا وقع في حمأة الشرك الذي لا يغفره الله أبدًا، نعوذ بالله أن نشرك به شيئًا، ونحن نعلم ونستغفره لما لا نعلم.

وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

فرغت من الكلام بإيجاز عن العبادات القلبية التي لا تنبغي إلا لله ويكون مناط العبادة فيها هو القلب وحده.

وذلك مثل الحب والخوف والرجاء والذل والتوكل والاستعانة والتوبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخضوع والاستكانة والإخلاص والتقوى والمراقبة واليقين، وغيرهما مما يتعلق بالقلب ولا دخل فيه لجارحة أو لسان.

وأبدأ الكلام الآن على العبادات القولية: التي تناط العبادة فيها بقول اللسان مقارنًا للإرادة الصحيحة والنية الخالصة التي هي شرط في العبادات كلها.

والعبادات المتعلقة باللسان فوق أنها كثيرة جدًا تعتبر مزلقًا خطيرًا من مزالق الشرك لكثرة ما يقع فيها من الزلل والانحراف، بدعاء غير الله أو استغاثته، أو الحلف به أو الغلو في مدحه، بما يرفعه عن درجة المخلوقين، أو سؤاله المدد والبركة على نحو ما يفعله القبوريون عند الأضرحة التي يعكفون عليها يبتغون عندها الزلفى ويقدمون لها كل أنواع الاسترضاء.

ولهذا رأيت نظرًا لخطورة الموضوع وأهميته القصوى، أن أتناول بالتفصيل كل واحدة من هذه العبادات اللسانية، وأن أبين ما وقع فيها من زيغ وانحراف، بيانًا يستبين به سبيل الحق والإنصاف ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فمن هذه العبادات:

أولاً:الذكر:وهو في الأصل استحضار المذكور سبحانه وتعالى في القلب ببعض ماله من الأسماء والصفات، مع التأمل في معانيها والتدبر لآثارها وتأثر القلب بها.

وذلك لأن الذكر من التذكر الذي هو ضد النسيان والغفلة.

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]

وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

فأنت إذا استحضرت الله في نفسك باسم الرحمن مثلاً، وتأملت معناه، وهو أنه ذو الرحمة التي وسعت كل شيء وبلغت حيث بلغ علمه،

ثم استجلبت مظاهر هذه الرحمة في نفسك مما أودع الله فيك من القوى والحواس والأعضاء والآلات، وما ميزك به من موهبة العقل والتفكير التي صرت بها خليفة في أرض الله تعمرها وتستخرج منافعها وتدبر شئونها.

واستجلبت مظاهرها كذلك فيما حولك مما جعل الله في السماء من شمس وقمر ونجوم وأبراج سخرها لك وناط بها حياتك. ومما أودع في الأرض من كنوز وخيرات، وما بثه على ظهرها من صنوف الحيوان والنبات.

وكيف بسطها لك وجعلها ذلولاً، وثبتها بالجبال، وأنزل عليها من السماء ماء فأجراه أنهارًا وسلكه ينابيع،وجعله مادة الحياة لكل ما على ظهرها من حيوان ونبات.

ثم ذكرت كذلك أن هذه الرحمة التي اشتملت في الدنيا بر الناس وفاجرهم، ستكون من خاصة بالمتقين يوم القيامة،

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف:١٥٦].

أقول: إذا أنت فعلت ذلك كله كنت قد ذكرت الله باسمه الرحمن الدال على صفة الرحمة، ولو لم ينطق به لسانك.

وكذلك إذا استحضرت ربك في نفسك باسمه العظيم الدال على صفة العظمة التي تتضاءل دونها كل العظمات، وذكرت أن هذا الكون كله من عرشه إلى فرشه على ترامي أبعاده، واتساع أقطاره، وما يحوي في فضائه الواسع من أجرام هائلة، لا يعدو أن يكون بين يدي خالقه ومبدعه كبندقة في يدك، أدركت سر عظمته سبحانه وأنه لا سبيل لأحد من الخلق إلى اكتناهها والإحاطة بها .

ويكفيك أن تعتبر في بعض مخلوقاته مثل العرش والكرسي، فكرسيه قد وسع السموات والأرض بحيث تكون في جوفه كحلقة ملقاة في فلاة ، والكرسي في العرش هو أيضًا كحلقة ملقاة في فلاة، فإذا بلغت بعض مخلوقاته من الاتساع والعظمة هذا الحد الذي يبهر العقل ويحير الفكر،فما ظنك بعظمة خالقها؟ إنها تكون ولا شك عظمة تفنى عندها كل عظمة وتذوب.

وهذا إذا استحضرته سبحانه باسمه العلي، وذكرت هذا العلو المطلق له على كل شيء، فهو علو الذات فوق عرشه، وهو علو القدر والشرف والمجد والسيادة والكمال والعظمة، وهو علو القهر والقدرة والعزة والغلبة والانتقام والبطش، بحيث لا يكون للفظ العلو من معنى إلا هو ثابت له سبحانه من كل وجه وإن رغم أنف النفاة المبطلين.

وبالجملة فمهما استحضرته تعالى في نفسك باسم من أسمائه، وتأملت معنى هذا الاسم وما يدل عليه من صفة ونظرت إلى آثار تلك الصفة في نفسك وفي غيرك، فقد ذكرت الله وعبدته بهذا الاسم ، ولو لم يجر على لسانك.

وهذا الذكر النفسي هو من قبيل عبادات القلب التي سبق الكلام عليها، فلا شأن لنا به هنا، وإنما الذي نريد أن نتكلم عليه، هو الذكر الذي يكون في اللسان

مترجمًا عما في القلب وموافقًا له. وهذا أكمل أحوال الذكر، فإن اجتماع القلب واللسان مما يقوي المعنى ويزيده جلاًء، وفيه من التعبد أكثر مما لو انفرد القلب وحده.

وإذا عرف أن وظيفة اللسان في الذكر ليست إلا الترجمة عما في القلب، تكون أنواع الذكر باللسان بمقدار ما يتسع له القلب من معاني أسمائه وصفاته، فقولك(سبحان الله) ذكر؛ لأنها تعبير عما يعتقده القلب من تنزهه سبحانه عن كل صفة نقص وعيب، وعن سمة الحدوث والاحتياج.

فيدخل في ذلك تنزهه عن كل ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسول الله ﷺ ، من الند والشريك، والصاحبة والولد، والشفيع والظهير، والسنة والنوم، والضلال والنسيان، والعجز والجهل، والظلم والسفه، إلى غير ذلك مما لا يليق بذاته المقدسة.

وقولك: (الحمد لله) ذكر له جل شأنه بما له من صفات الكمال كلها، فيتناول فضله ورحمته وجوده وإحسانه، ولطفه وامتنانه، وعفوه وحلمه وستره ومغفرته، وهدايته للخلق بإنزال الكتب والشرائع.

وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويتناول كل شئون ربوبيته من الخلق والرزق والتدبير والملك، مما لا تستطيع العقول حصره، فله الحمد في الأولى والآخرة.

وقولك: (لا إله إلا الله) أفضل الذكر؛ لأنها براءة من كل ما عبد من دون الله، وإثبات وصف الإلهية له وحده، وإذا عرف أن الله ما خلق الخلق إلا ليعبدوه، وكانت العبادة لا تصح معها الإشراك، كانت الكلمة الدالة على إخلاص العبادة لله أعظم الكلام.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح«**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥)، وحسنه العلامة الألباني في جامع الترمذي (٥٧٢).

فكلمة(لا إله إلا الله) عليها يدور أمر الإسلام كله، فهي منه قطب الرحى، وأساس البناء، ولهذا كان من قالها صادقًا من قلبه، أسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ يوم القيامةن ومن كان آخر كلامه دخل الجنة.

وكذلك إذا ذكرت ذنبك وإساءتك وتفريطك في جنب الله وتعديك لحدوده، وانتهاكك لحرماته، فقلت: أستغفر الله العظيم كان هذا ذكرا من أحب الأذكار إلى الله ويجلو صدأ القلب ويذهب عضب الرب ويستنزل خيره ورحمته.

كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۝﴾ [نوح: ١٠، ١٢].

والله تعالى يفرح بتوبة عبده حين يتوب إلى أشد الفرح، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل، وجعل التوبة والاستغفار شفاء من الذنوب والأوزار.

وكذلك قراءتك للقرآن الذي هو كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله، من أفضل الذكر، فلا شيء أحب إلى الله، ولا أقرب إليه زلفى.

من تلاوة كتابه، مع التفقه والتدبر والخشوع والخشية.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي الحديث« **ما عبد الله بشيء أحب إليه مما خرج منه**»[1] يعني القرآن الكريم،.

وفي الحديث الآخر« **من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[2].

---

(١) ضعفه العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٧)، بلفظ (وما تقرب عبد إلى الله عز وجل بأفضل مما خرج منه).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦)، ضعفه العلامة الألباني في ضعيف جامع الترمذي (١٨٤).

وبالجملة فكل ما جرى على اللسان مما فيه ثناء على الله، دعاء له باسم من أسمائه الواردة على لسان الشرع، مع التضرع والتذلل والخيفة والمخافتة، فهو ذكر لله بعد صاحبه من الذاكرين الحائزين لفضيلة الذكر.

وأما هؤلاء الذين اتخذوا دينهم هزوًا ولعبًا فيذكرون الله بما لم يسم به نفسه، من نحو قولهم: (آه، وهو).

ويلحدون في أسمائه بالتحريف لها عن أصل وضعها، فيقصرون الممدود، ويمدون المقصور، ويرفعون بذلك أصواتهم في جرأة وقحة.

ولا يذكرونه إلا مع هز الرءوس والأكتاف، ورقص البطون والأرداف، وإلا على صفير الناي وأنشاد النساء.

ويجتمعون على الذكر حلقات يتوسطهم شيطان يصفق لهم، وهم يرقصون على إيقاع تصفيقه مجردة قلوبهم من الخشوع والخشية، ممتلئة من كل هوى خبيث، وفجور داعر.

أقول: إن الذكر على هذه الهيئة المنكرة التي يبرأ منها دين الإسلام، ليس بدعة فحسب بل هو جريمة في حق الدين والوطن أيضًا.

فما ينبغي للدولة التي تحترم نفسها أن تسمح لنفر من أبنائها بارتكاب مثل هذا الهراء الذي يسيئ إليها ويجعلها مثارًا للضحك والسخرية من جيمع الشعوب.

تكلمت في ما سبق عن الذكر كصورة من صور العبادات القولية، وقلت: إن الذكر باللسان لا يكون معتدًّا به ولا بالغًا بصاحبه أن يعد من الذاكرين.

إلا إذا سبقه ذكر القلب بأن يستحضر الذاكر ربه جل وعلا موصوفًا بما ينبغي له من صفات الكمال، أو منزهًا عن كل ما يليق به من صفات النقص والسوء.

ثم يترجم اللسان عما يدور في القلب من تلك المعاني ترجمة صادقة.

فلا يلحد في أسماء الله، بأن ينطق بها محرفة مبدلة، أو يسميه سبحانه بغير ما سمى به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

وذكرت من آداب الذكر ما تضمنته الآيات الكريمة التي في آخر سورة الأعراف أعني قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]

فإنها قد تكفلت بوضع دستور للذكر ينبغي أن يراعيه كل ذاكر، وهو أن يكون ذكره لله عز وجل، إما في نفسه بلا تلفظ، أو مخافتة بلا جهر، وأن يكون مع التذلل والخشية والإخبات.

وعرضت كذلك في آخر الحديث لما يفعله ضلال الصوفية وأصحاب الطرق مما سمونه ذكرًا، ونبهت إلى بعض ما يلابسه من البدع الشنيعة التي يربأ عنها كل عاقل يحترم نفسه ويوقر ربه ويفهم دينه.

وأزيد على ذلك: أن ما يلتزمه هؤلاء من الذكر بقولهم: (الله) أو (هو) أو غيرهما من الألفاظ المفردة.

ليس هو الذكر الذي شرعه الله جل شأنه.

فإنه لم يرد في الكتاب ولا في السنة أمر به ولا فيهما ما يدل على شرعيته ولا نقل عن أحد ممن يعتد به من سلف هذه الأمة أنه ذكر الله عز وجل بمثل ذلك.

فإن الاسم المفرد المجرد ليس كلامًا تامًّا ولا جملة مفيدة، ولو تلفظ به كافر لم تحصل له النسبة إلى الإسلام بمجرده، حتى يقول لا إله إلا الله، فهو يفيد الإيمان باتفاق، ولا ورد الأمر به في شيء من العبادات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته المسماة بالعبودية ما ملخصه، وهو بحث نفيس جدًّا:

« وأما الاسم المفرد مظهرًا أو مضمرًا فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ.

ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعًا، وإنما يعطيه قصورًا مطلقًا لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات.

فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد نفسه وإلا لم يكن فيه فائدة، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما يكون الفائدة حاصلة بغيره.

والذكر بالاسم المفرد المضمر أبعد عن السنة وأدخل في البدعة وأقرب إلى إضلال الشيطان، فإن من قال: (يا هو ياهو) أو (هوهو).

ونحو ذلك لم يكن الضمير عائدًا إلا إلى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي، وقد يضل.

ثم كثيرًا ما يذكر عن بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل(الله) لقوله سبحانه ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾.

ويظن بأن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد، وهذا غلط باتفاق أهل العلم، فإن قوله (قل الله) معناه: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى.

وهذا جواب لقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ﴾ [الأنعام:٩١].أي: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى.

رد بذلك قول من قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ فقال من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟ ثم قال: قل الله: أي أنزله.

ثم ذر هؤلاء المكذبين في خوضهم يلعبون، والله تعالى لم يأمر أحدًا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسمًا مفردًا مجردًا.

ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر من أن بعض الأعراب مر بمؤذن يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله بالنصب، فقال ماذا يقول هذا؟ هذا هو الاسم فأين الخبر عنه؟

وما في القرآن من قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ [المزمل:٨].

وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

قال النبي ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**»

ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؛ قال: «**قال اجعلوها في سجودكم**»[١]

فشرع لهم أن يقولوا في الركوع سبحان ربي العظيم، وفي السجود سبحان ربي الأعلى فتسبيح اسم ربه الأعلى.

وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد.

هو بالكلام التام المفيد، كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال « **أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر**»[٢] وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال« **كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن :سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[٣]

وكذلك ما شرع للمسلمين في صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تعالى، إنما هو بالجملة التامة كقول المؤذن الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وقول المصلي الله أكبر، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى، سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، التحيات لله.

وقول الملبي: لبيك اللهم لبيك، وأمثال ذلك، فجميع ما شرعه الله من الذكر، إنما هو كلام تام لا اسم مفرد، لا مظهر ولا مضمر، وهذا هو الذي يسمى في اللغة كلمة.

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، ابن ماجه (٨٨٧)، وحسنه العلامة الألباني في مشكاة المصابيح (٨٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٣٧)،

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

كقوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن»[١].

وقوله : «أفضل كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف:٥].

والمقصود هنا أن المشروع في ذكر الله هو ذكره بجملة تامة.

وهو المسمي بالكلام، والواحد منه بالكلمة.

وهو الذي ينفع القلوب ويحصل له الثواب والأجر والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته، المطالب وغير ذلك من المآرب العالية والمقاصد السامية.

وأما الاقتصار على الاسم الفرد مظهرًا أو مضمرًا فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين ، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الإتحاد.

فهل يسمع هذا الكلام هؤلاء الذين شرعوا لأنفسهم من الذكر مالم يأذن به الله، وعبدوا الله بالهوى والبدعة، وصدق عليهم إبليس ظنه فأطاعوه فيما زين لهم من أعمال حمقاء.

وحركات رعناء حسبوها قربات وظنوها طاعات ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ .

ومن أهم العبادات القولية التي لها أكبر شأن في الإسلام بل وفي الأديان الإلهية كلها الدعاء وهو يرد في القرآن على نوعين دعاء الثناء والعبادة ودعاء المسألة والطلب وتارة يراد به مجموعها والنوعان متلازمان فإن دعاء المسألة معناه طلب ما ينفع الداعي، أو طلب كشف ما يضره أو دفعه.

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).

ولك من يملك النفع والضر فأنه هو المعبود حقًّا، والمعبود لا بد أن يكون مالكًا النفع والضر ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك له ضرًا ولا نفعًا.

وذلك كقوله تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:١٠٦].

هو في القرآن كثير جدًا.

وإذا تأملنا الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الدعاء وجدناه في بعض الآيات يكون أظهر في أحد المعنيين منه في الآخر.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]

أظهر في دعاء العبادة ولهذا عقبه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠]

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

وكذلك كل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لآلهتهم وأصنامهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو في دعاء العبادة أظهر.

وأما ما هو أظهر في دعاء المسألة والطلب.

فمثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٥،٥٦].

وقوله سبحانه حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ [مريم:٣،٤]

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦٩)، وصححه العلامة الألباني (٢١١).

وقوله كذلك ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

فهو متضمن للنوعين جميعًا وبكل منهما فسرت الآية فقيل معناه أعطيه إذا سألني وقيل معناه أثيبه إذا عبدني .

والذي يهمنا الكلام عليه هنا هو دعاء المسألة والطلب؛ لأنه أعظم ما وقع فيه النزاع بين أهل الحق وبين خصومهم ممن يدعون غير الله عز وجل ويسألونه مالا يقدر عليه إلا الله أو يجعلون بين الله وبينهم واسطة في الدعاء يعتقدون أنها ترفع حوائجهم إلى الله وتشفع لهم عنده في قبول دعائهم وقضاء حوائجهم وبدون تلك الواسطة لا يسمع لهم دعاء ولا تقضى لهم حاجة.

فإذا علمنا أن دعاء المسألة والطلب نوع من العبادة؛ بل هو مخ العبادة لأنه لا يدعى ويسأل إلا من كان مالكًا للنفع والضر ومن كان مالكًا للنفع والضر هو الذي يستحق أن يعبد.

علمنا أن دعاء غير الله تعالى كما يفعله كثير من الناس عند أضرحة المشايخ من دعائهم لأصحابها واستغاثتهم بهم هو شرك صريح وتوجه بالدعاء الذي هو عبادة إلى غير الله.

وأما من دعا الله عز وجل بأحد من خلقه بمعنى أنه جعله شفيعًا إلى الله في أن يقبل دعاءه أو يقضي حاجته معتقدًا أنه لولا تلك الشفاعة لم يسمع دعاءه ولم تقض حاجته وأن لتلك الواسطة تأثيرًا غيبيًا في جلب الخير ودفع الضر.

فهذا أيضًا شرك يجب أن يستتاب صاحبه منه فأنه قد جعل هذا الشفيع شريكًا مع الله في قضاء حاجاته وكشف كرباته كما أنه شبه الله عز وجل بخلقه وجعله كواحد من ملوك الدنيا محتاجًا إلى أعوان وظهراء يرفعون إليه حوائج

عباده ويعرفونه بما خفي عليه من أحوالهم ويقدرون على التأثير في إرادته فينقلونه بشفاعتهم من حال الغضب والقسوة إلى حال الرضى والرحمة.

وهو يستجيب لهؤلاء الشفعاء لأن لهم عنده من الجاه والحرمة ما لا يقدر معه على رد شفاعتهم لحاجته إليهم في تدبير مملكته ومقاومة أعدائه إلى غير ذلك من المعاني التي يجب تنزيه الله تعالى عنها؛ ولهذا أنكر القرآن على المشركين اتخاذهم الوسائط والشفعاء بينهم وبين الله تعالى واعتبر ذلك شركًا صريحًا لا يقل في شناعته عن دعاء غير الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

وقال في سورة الزمر: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر:٣].

فجمع لهم في هذه الآية بين أقبح وصفين وهما الكذب والكفر وبين أن ذلك مانع من هداية الله لهم.

وإذا كان هذا هو حكم الله في هؤلاء المشركين الذين ما كانوا يعبدون هذه الأصنام لذاتها ولا كانوا يعتقدون أنها تملك لهم النفع والضر.

وإنما كانوا يتقربون بها إلى الله ويستشفعون بها عليه جل شأنه لاعتقادهم أنها أقرب إلى الله منهم.

وأرجى إليه شفاعة فماذا يكون حكم الله في هؤلاء العاكفين على هذه الأضرحة يوسعونها لثما ويتمسحون بها تبركًا ويناجونها في ذلة وضراعة.

ويسألونها كل حوائجهم ملتمسين رضاها وبركاتها خائفين أشد الخوف من سطوها ونقمتها ومتملقيها بأنواع القرابين والنذور.

وإذا سئل أحدهم أن يحلف بواحد منها وكان كاذبًا تحاشى ذلك وخشي عاقبته، وإذا طلب منه الحلف بالله عز وجل فرح وجاءه الفرج وبذل ذلك لمن سأله بذل السماح.

وإذا كان الدعاء من بين العبادات بهذه المنزلة من الأهمية والاعتبار حتى جعله الرسول ﷺ هو العبادة أو مخها.

فلا غرو أن يحتاط له الإسلام حتى يبقى خالصًا لله وحده، بعيدًا عن شوائب الوثنية والإشراك، فجاءت نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة مصرحة بوجوب الإخلاص في الدعاء.

وناعية على من يدعون مع الله غيره إفكهم وضلالهم، وضاربة الأمثال المبينة لحالهم الشنيعة والمنفرة لكل ذي لب من التردي في تلك الهوة السحيقة.

وإذا كنا لا نستطيع أن نستوعب هذه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، فلا أقل من أن نذكر طرفًا منها ليكون أنموذجًا لبقيتها.

وليكون حجة دامغة لهؤلاء المنحرفين الذين استجراهم الشيطان ولبس عليهم دينهم، وخدعهم عن أنفسهم حتى رضوا لها الهوان والضعة والوقوف في ذلة واستكانة بين يدي أجداث من الخشب والحديد.

يناجونها مناجاة الحي للحي، ويدعونها في كل ما يهمهم من الأمور، ويعولون عليها التعويل كله، حتى ربما تركوا الأخذ في الأسباب التي وضعها الله عز وجل. اتكالاً على معونة هذه الأجداث وتدبيرها.

يقول الله تعالى في آخر سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ

يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف:١٩٤-١٩٨].

ففي هذه الآيات الكريمة يخبر الله سبحانه عمن يدعوهم الناس من الموتى المقبورين وصورهم بأنهم ليسوا إلا عبادًا لله أمثال الداعين لهم، وأنهم مهما بالغوا في دعائهم فلن يستجيبوا لهم بشيء إذ كانوا عن دعائهم غافلين.

ثم بين سبحانه ما صاروا إليه من فقد الأعضاء والآلات التي كانوا يملكون بها الفعل.

لا أرجل تمشي ولا أيد تبطش ولا أعين تبصر ولا آذان تسمع، ثم يتهكم بهم فيأمرهم أن يدعوها لكي تظاهرهم في الانتقام والكيد لمن يشتمها ويحقرها بلا مهلة ولا تأخير.

ثم يعلنهم بالبراءة من هذه الآلهة الباطلة، وأنه لا يتخذ شيئًا منها وليًّا يلوذ به ويتوكل عليه. وإنما وليه الحق هو الله الذي نزل الكتاب.

داعيًا إلى عبادته وتوحيده هو يتولى عباده الصالحين كر على آلهتهم مرة أخرى، فبين أنها أعجز من أن تنصر من استنصر بها بلا ولا تستطيع نصر نفسها ممن أرادها بسوء وتحطيم.

ويقول سبحانه في آخر سورة يونس عليه السلام: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٦،١٠٧].

ففي الآية نهي صريح عن دعاء غير الله مما لا يملك لداعيه نفعًا ولا ضرًّا، وتسجيل الظلم العظيم على كل من فعل ذلك.

حتى ولو كان هو رسول الله المخصوص بغاية القرب والتكريم، وفي الآية الثانية يبين سبحانه عدم جدوى هذا الدعاء، فإن الداعي لغير الله إما أن يطلب، منه كشف ضر نزل به.

أو إنزال ما يتمناه من الخير ولا يكشف الضر إلا الله ولا يصيب بالخير سواه، ولا يستطيع أحد أن يحبس فضله عمن يريد إصابته من خلقه، فماذا بقي إذًا لهؤلاء الذين يدعوهم الناس من دون الله.

وماذا عندهم مما يخاف أو يرجى حتى نهرع الجموع إليهم طالبين مستغيثين.

ويقول جل شأنه في سورة الرعد: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

فأخبر سبحانه عن نفسه بأن له وحده دعوة الحق، أي التي حققها صاحبها ولم يضيعها.

لأنه دعا من هو حقيق بالدعاء ومن هو قادر على إجابته، بخلاف هؤلاء الذين يدعوهم الناس من دونه.

فإن دعوتهم باطلة لم تقع موقعها، بل ضيعها صاحبها حين رجا غير مرجو، وأمل من ليس أهل لتأميله فحال داعيهم في عدم انتفاعه وعدم استجابتهم له.

كحال رجل اشتد به العطش فعمد إلى نهر ليشرب منه، ولكنه بدلاً من أن يتناول الماء بيديه، ويوصله إلى فيه، اكتفى بأن يبسط كفيه إلى الماء منتظرًا بلوغ الماء إلى فيه، وليس ببالغه أبدًا.

فكذلك هؤلاء أضاعوا دعاءهم حين توجهوا به إلى غير الله ، فقصر بهم عن بلوغ ما طلبوا، كما قصرت حال هذا الباسط كفيه به أن ينال من الماء حاجته.

فما أروع هذا المثل القرآني، وما أجدر أن يتأمله هؤلاء الحيارى المتهوكون، لعلهم أن ينتهوا عما هم فيه من عمي وضلال.

ويقول عز من قائل في سورة النحل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠،٢١].

فبين سبحانه أنه لا ينبغي أن يدعا إلا الخالق الحي لأنه هو الذي يسمع داعيه ويقدر على الاستجابة له، وليس ذلك إلا الله جل شأنه.

وأما هذه الآلهة التي تدعى من دونه فإنها لم تخلق شيئًا بل هي مخلوقة، وهم كذلك أموات لا حياة فيهم.

ولا يدرون متى يكون قيامهم من قبورهم، فكيف يدعا من هو متصف بالعجز والغفلة، وهما من أشد الصفات منافاة لإجابة الدعاء، وصدق الشاعر الذي قال:

لقد أسمعت إذ ناديت حيًّا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ويقول جل شأنه في سورة بني إسرائيل: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٥٦،٥٧].

نزلت هذه الآية فيمن يدعو المسيح وأمه وعزيرًا والملائكة، كما روي عن بعض السلف.

فقيل لهؤلاء: إن الذين زعمتموهم آلهة مع الله مهما دعوتموهم فلن يملكوا إزالة الضر عنكم ولا تحويله، أي نقله عنكم إلى غيركم.

وأنهم عباد لله مثلكم يطلبون القرب إليه بطاعته كما تطلبون، ويرجون رحمته كما ترجون ويخافون عذابه كما تخافون، فيكف يليق أن يدعو بعد عبدًا؟ وكيف يرجى أو يخاف من هو راج وخائف؟ كيف نمد اليد بالسؤال إلى طالب محتاج؟ .

ويقول سبحانه في سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ:٢٢،٢٣].

فنفى الله سبحانه في هاتين الآيتين كل ما يمكن أن يتذرع به المشركون في دعائهم لغيره.

فنفى عنهم:

أولاً: ملكيتهم لأقل شيء وأحقره وهو مقدار الذرة في السموات أو في الأرض، ثم نفي عنهم.

ثانيًا: أن يكون لأحدهم شركة مع الله في شيء منهما، ثم نفى عنهم.

ثالثًا: أن يكون لله منهم ظهير يعاونه في الخلق أو التدبير، ثم نفى عنهم.

رابعًا:أن يكون لهم عند الله شفاعة نافعة إلا بعد إذنه ورضاه فانظر كيف سدت هاتان الآياتان أبواب التعللات كلها في وجوه القبوريين حتى لم يبق لأحد عذر بعد هذا البلاغ المبين.

ولكن من يشأ الله يضلله، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم.

وإذا كانت آيات الكتاب العزيز قد تضافرت هكذا على وجوب الدعاء لله سبحانه، والتوجه إليه وحده رغبة ورهبة.

فقد جاءت السنة المطهرة بتأكيد ذلك المعنى وتشديد النكير على كل من يجعل لله ندًّا، يتوجه إليه في دعائه، ويطلب منه مالا يقدر عليه غيره.

ومن ذلك الحديث المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « **كنت خلف النبي ﷺ فقال لي ياغلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك طويت الصحف وجفت الأقلام** »[1].

وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم؟ فقال « **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك** »[2].

ومعنى الند: المساوي الذي يجعل له من الحق في الدعاء والعبادة مثل ما لله عز وجل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي (٦٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦)..

وقد جاء في حديث آخر: « **سلوا الله في كل شيء حتى في شسع نعالكم وملح قدوركم ومن لم يسأل الله يغضب عليه**»[١]

وعلى الجملة فالدعاء من أعظم العبادات القولية والقلبية التي يجب إخلاصها لله جل ذكره، وهذا أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام بل ومن كل دين بعث الله به رسله وأنزل به كتبه.

ولكن الشياطين تلبس على الناس في هذه العبادة وتزين لهم أن يتخذوا فيها الوسائط والشفعاء التي تقربهم من الله زلفى وترفع إليه أدعيتهم وحوائجهم.

ومن جملة تلبيسه عليهم في هذا الباب أن يقول لهم: إنكم قد أسرفتم على أنفسكم في ارتكاب الذنوب والمعاصي التي ابعدتكم عن الله عز وجل وجعلت بينكم وبينه حجابًا غليظًا فلا يعقل أن تفتح لكم أبواب السماء.

ولا أن يستجاب لكم دعاء حتى تتوسلوا إلى الله فيه ببعض الصالحين من عباده.

وبذلك صرفهم عن ابتغاء الوسيلة إلى الله بما شرعه هو وجعله وسيلة مقبولة عنده، لا ابتداع وسائل لم يأذن بها ولم ينزل بها من سلطان وينكشف ذلك التلبيس بأن اتخاذ الوسائط شرك والشرك من أعظم الذنوب المبعدة عن الله عز وجل فإذا كان ما دون الشرك من الذنوب مانعًا من إجابة الدعاء كان الشرك أولى بذلك.

ولهذا أنكر الله على المشركين قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]

قولاً من عند أنفسهم بلا حجة ولا دليل.

وأما ما يشغب به القبوريون في هذا الباب من آثار فلا يصح منها شيء اللهم إلا حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما وقوله: « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك الآن بعم نبينا فاسقنا فيسقون»[٢].

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٧٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٠).

على أن هذا الحديث حجة عليهم لا لهم فإن عمر ﷺ لم يتوسل بذات العباس وشخصه وإنما توسل بدعائه فإن التوسل بالذوات لو كان جائزًا لما عدل عمر ومن معه من المهاجرين والأنصار عن التوسل برسول الله ﷺ إلى التوسل بالعباس مع أن ذات الرسول ﷺ أفضل قطعًا من ذات العباس وذاته ميتًا كذاته حيًّا.

ولكن عمر أدرك أن ما كان يملكه الرسول ﷺ من الدعاء حال حياته في الاستسقاء وغيره قد بطل بموته فقدم ألصق الناس رحمًا به وهو عمه صنو أبيه لينوب عنه في هذا المقام وقد حفظ من دعاء العباس يومئذ قوله: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة وهذه نواصينا إليك بالذنوب وأيدينا إليك بالتوبة»[1].

ولا أطيل الكلام في هذا الموضوع أكثر من ذلك فإن الحق فيه أظهر من أن يخفى ومن أراد الوقوف على جلية الأمر فيه فليرجع إلى ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من علماء السنة الذين بسطوا القول في هذه المسألة غير أني سأنقل هنا ـ تتميمًا للفائدة ـ ملخصًا لما جاء في رسالة (زيارة القبور) لابن تيمية من أحكام تتعلق بذلك الأمر عسى أن يعتبر بها أولئك الذين يرجون لهذه الضلالة فيفيئوا إلى الحق والهدى ويتركوا سبيل اللجاج والعناد.

قال رحمه الله: «وتفصيل القول أن مطلوب العبد إن كان من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى مثل أن يطلب شفاء مرضه من الآدميين والبهائم أو وفاء دينه من غير جهة معينة أو عافية أهله وما به من بلاء الدنيا والآخرة وانتصاره على عدوه وهداية قلبه وغفران ذنبه أو دخوله الجنة أو نجاته من النار أو أن يتعلم العلم والقرآن أو أن يصلح قلبه ويحسن خلقه ويزكي نفسه وأمثال ذلك فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تطلب إلا من الله تعالى.

---

(١) انظر كتاب التوسل لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق العلامة الألباني (٦٣).

ولا يجوز أن يقول لملك ولا نبي ولا شيخ سواء كان حيًّا أو ميتًا اغفر ذنبي، ولا انصرني على عدوي ولا اشف مريضي ولا عافني أو عاف أهلي أو دابتي وما أشبه ذلك ومن سأل ذلك مخلوقًا كائنًا من كان فهو مشرك بربه.

وأما من يأتي إلى قبر نبي أو صالح أو من يعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح وليس كذلك ويسأله ويستنجده فهذا على ثلاث درجات:

أحدها: أن يسأله حاجته مثل أن يسأله أن يزيل مرضه أو مرض دوابه، أو يقضي دينه أو ينتقم له من عدوه أو يعافي نفسه وأهله ودابه، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل.

وإن قال أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور، لأني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه، فهذا من أفعال المشركين والنصارى فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم.

وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ثم يقال لهذا المشرك أنت إذا دعوت غير الله فإن كنت تظن أنه أعلم بحالك.

وأقدر على عطاء سؤالك أو أرحم بك فهذا جهل وضلال وكفر، وإن كنت تعلم أن الله أعلم وأقدر وأرحم، فلم عدلت عن سؤاله إلى سؤال غيره؟

وإن قلت هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعوته.

فهذا هو القسم الثاني؛ وهو: أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه ولكن تطلب أن يدعو لك فهذا مشروع في الحي وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول ادع لنا ولا أسأل لنا ربك.

وأما القسم الثالث: وهو أن يقول اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان أو بحرمة فلان عندك، افعل بي كذا وكذا فهذا يفعله كثير من الناس لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء.

وبعد فهل آن لهذه الأمة أن تتخلص من أوحال تلك الوثنية المدمرة التي تتمثل في تلك الأقوال والأفعال المنكرة التي يرتكبها الناس عند أضرحة المشايخ من الاستعانة بها، وطلب الحاجات منها، وتقبيل الأرض عندها، ووضع الخد عليها.

والتزامها وغير ذلك مما رجع بنا إلى جاهلية شر من الجاهلية الأولى إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

نعود إلى ما كنا بسبيله من بيان العبادات القولية المنوطة باللسان، بعد أن وقفت بك أيها الأخ الكريم عند ما نقلته لك من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في حكم دعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم، أو اتخاذهم وسائط يستشفع بها إلى الله في قضاء الحاجات وإنزال الخيرات ودفع الكربات.

وكنت وعدتك أن يكون هذا هو خاتمة الكلام في باب الدعاء ولكني رأيت أن أزيدك بصيرة في هذا الباب بأن أضع لك منهاجًا تلتزمه إذا أردت الدعاء، وأن أذكرك ببعض ما يجب أن تأخذ به نفسك حتى يكون دعاؤك صحيحًا مقبولاً مرجو الإجابة ، إن شاء الله:

١ - إذا أردت أن تدعو الله بشيء من أمور آخرتك أو دنياك، فالبس ثوب الضراعة والذلة واستشعر الفقر والحاجة موقنًا أن الله وحده هو الذي يملك أمرك كله، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فتدعوه رغبًا ورهبًا، ولا تلتفت بقلبك إلى غيره ولو على سبيل الوسيلة.

فلا وسيلة إلى الله أنجح من إخلاص الدعاء له وإظهار الفقر والمسكنة بين يديه، كما لا وسيلة أحب إليه من أسمائه الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها فقدم بين يدي حاجتك ما يناسبها من هذه الأسماء حتى تفتح لدعائك أبواب السماء.

٢- اجتهد في حفظ الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ وادع الله بها فإنها ما تركت خيرًا من خيرات الدنيا والآخرة إلا سألت الله إياه، ولا تركت من شر إلا استعاذت بالله منه.

وإياك وهذه الأدعية البدعية التي تمتلئ بها أوراد الصوفية وكتبهم فإنها مليئة بالتوسلات الشركية.

٣- إياك وأكل الحرام فإنه مانع من إجابة الدعاء، واجتهد في تحري الحلال الطيب.

فقد جاء الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وعملوا صالحًا**».

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك.

وري عنه ﷺ أنه قال لسعد بن أبي وقاص حين قال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة: « **أطب طعمتك يا سعد تستجب دعوتك**»[1].

٤- إياك والاعتداء في الدعاء فلا تجهر به كل الجهر.

فقد جاء في حديث أبي موسى الأشعري، أن النبي ﷺ حين سمع أصحابه يرفعون أصواتهم.قال:«**يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم**

(١) ضعفه العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة (١٨١٢)، ضعيف الترغيب والترهيب (١٠٧١)..

ولا غائبًا، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[١] بل الأفضل أن يكون الدعاء سرًّا على جهة المخافتة والمناجاة.

كما قال تعالى ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥]

وقال في شأن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣].

ومن الاعتداء في الدعاء؛ كذلك أن تطيله أكثر مما ينبغي، فقد جاء في الحديث: **«سيكون قوم يعتدون في الظهور والدعاء حسب أحدهم من دعائه أن يقول: (اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل) »**[٢].

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «عليك بجوامع الدعاء مثل: (اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم)»[٣].

ومن الاعتداء فيه أيضًا: أن تدعوا الله بإثم أو قطيعة رحم أو تسأله مالا ينبغي لمثلك كأن تسأله درجة الأنبياء في الجنة ونحو ذلك.

١- تحر بدعائك الأوقات التي ورد النص باستجابة الدعاء فيها، مثل أدبار الصلوات، وعند سماع الأذان، وفي المعركة عند اشتداد البأس.

٢- وعند نزول الغيث،وبين الأذان والإقامة وفي أواخر الليل وقت السحر فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

وفي الحديث **«ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول:هل من داع فأستجيب له، هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له.وهكذا حتى يطلع الفجر»**[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٠)،وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود (١٥٢٨).

(٣) ذكره الحافظ ابن رجب في جامع العلوم الحكم (١/ ٤٥٣).

والدعاء في السجود: فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

وكذلك ينبغي أن تتوخى بدعائك الأماكن التي يكثر فيها نزول الرحمة؛ لأنها مواطن لعبادة الله وإقامة شعائر دينه؛ والله أعلم.

تكلمت من العبادات القولية عن أهم أنواعها وهما: الذكر والدعاء، ونستوفي في هذا المقال إن شاء الله الكلام على بقية الأنواع:

فمنها الاستغاثة: ومعناها طلب الغوث والنجدة لتفريج كرب وإزالة شدة.

وهي لا تجوز إلا بالله عز وجل فيما لا يقدر عليه غيره، وأما ما يقدر عليه العباد فيجوز الاستغاثة بهم فيه إذا كانوا أحياء حاضرين، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**»[1].

وقد ورد القرآن بالنوعين معًا:

فمن النوع الأول الذي لا تجوز الاستغاثة فيه إلا بالله، قوله تعالى مخاطبًا المؤمنين وممتنًا عليهم بالنصر يوم بدر ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٩].

وكذلك قوله تعالى بصدد تقرير وحدانيته وإبطال إلهية ما سواه مما لا يملك لعابديه كشف ضر ولا تحويله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

ومن النوع الثاني قوله تعالى في شأن كليمه موسى عليه السلام حين استغاثه الإسرائيلي لينصره على المصري: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ الآية [القصص: ١٥].

والفرق بين هذين النوعين من الاستغاثة يزيل كثيرًا من الإشكالات، فإن الاستغاثة كالسؤال، بل هي نوع منه، فلا تجوز بالمخلوقين، إلا فيما يقدرون عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

كاستغاثة الغريق الذي أحاط به الموج لمن يملك إنقاذه. واستغاثة من تعرض له عدو وهو أقوى منه بمن يملك دفعه عنه. واستغاثة أصحاب الدار بالشرطة إذا دهمهم اللصوص، واستغاثة المريض بالطبيب في تشخيص دائه ووصف العلاج المناسب له.

ففي مثل هذه الحالات كلها لا تكون الاستغاثة بغير الله شركًا، بل تكون من قبيل تحصيل الأسباب، التي أمرنا أن نجعل لها اعتبارًا في السعي إلى حاجاتنا ومطالبنا، لكن ينبغي أن لا يعول العبد على هذه الأسباب وحدها فإن ذلك ينافي التوكل على الله جل شأنه، كما لا يصح أن يقصر فيها فيكون ذلك تواكلاً وتضييعًا، وبهذا البيان يعلم حكم الاستغاثة بالموتى والغائبين كما يفعله كثير من الناس الآن حين يستنجدون بالمشايخ أصحاب الأضرحة أو بشيوخهم الأحياء البعيدين، حتى أن الواحد من هؤلاء حين يمسه ضر، أو حين يريد أن يرفع حملاً ثقيلاً ينوء به، أو حين تتعسر امرأته في ولادة، أو حين يشب في بيته حريق ونحو ذلك لا يجد أمامه من وسائل الخلاص إلا أن يصيح باسم واحد من هؤلاء الشيوخ مستغيثًا به معتقدًا أنه حي في قبره وأنه يسمع نداءه على البعد، وأنه سينهض لإغاثته يجر أكفانه، وقد يتفق حينئذ أن يفرج الله ما نزل به من كرب فسرعان ما ينسب ذلك إلى من استغاث به من شيخ ميت أو غائب. ناسيًا أن الذي خلصه من شدته ونجاه من كربه ليس إلا ربه اللطيف الخبير الرحمن الرحيم، كما قال تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام:٦٤]. وقد لفت الرسول ﷺ أصحابه إلى ما في الاستغاثة بغير الله من معنى الشرك فقال لهم حين جاءوا يستغيثون به من منافق كان يؤذيهم «**إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل**».

وفي حديث مانعي الزكاة يقول ﷺ ما معناه «**لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، فيقول: يا محمد أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد بلغتك**».

ومنها الاستعاذة ومعناها: طلب العوذ وهو الحماية قال ابن كثير رحمه الله: «هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر والعياذ يكون لدفع الشر».

وهذا المعنى لا يجوز بالنسبة للمخلوقين أصلًا فليس لأحد أن يستعيذ بغير الله جل شأنه ولا أن يلتجئ إلا إليه، وكل الآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب لم يجئ فيها استعاذة بمخلوق بل كلها صريحة في إخلاص الاستعاذة بالله جل شأنه قال تعالى في سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨]وقال في سورة المؤمنون: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٧،٩٨]. وقال في سورة غافر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر:٥٦] وقال في سورة فصلت ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت:٣٦] وقال سبحانه في المعوذتين اللتين في آخر المصحف واللتين لم يتعوذ متعوذ بمثلهما ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [المعوذتين]. ولم ترد استعاذة قط على لسان أحد من الأنبياء أو الصالحين بغير الله رب العالمين.

فموسى عليه السلام لم راجعه قومه في شأن البقرة التي أمرهم بذبحها ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧].

وأم مريم عليها السلام لما ولدتها واعتذرت إلى الله من كونها أنثى لا تصلح للخدمة في بيت المقدس قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران:٣٦].

ونوح عليه السلام لما عاتبه ربه على سؤاله ما لاعلم له به من نجاة ولده الكافر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود:٤٧].

ومريم حين تمثل لها جبريل عليه السلام بشرًا سويًّا وخشيت أن يكون قد قصد بها سوءًا ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم:١٨].

وقد حكى الله عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن وأسلموا قولهم في شأن من كان يشرك في الاستعاذة من الإنس ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن:٦].

وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر يخاف فيه على نفسه يقول أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

يريد كبير الجن، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم خوفوهم زادوهم رهقًا أي خوفًا ورعباً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم.

وقد وضع النبي ﷺ لأمته بدلًا من هذه الاستعاذة الشركية استعاذة فيها التجاء إلى الله وتحصن بكلماته التامات فقال: «**من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك**»[1] رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق؛ ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها استعاذة بمخلوق وذلك شرك).

وبهذا يعلم أن ما يفعله كثير من النساء وأشباه النساء الآن من استرضاء الجن بإقامة حفلات الزار ونحوها ومايصحب ذلك من عربدة ورقص واختلاط الرجال بالنساء وذبح الذبائح باسم الجن والتزيي بالأزياء التي يزعم الوسطاء أن الجن يطلبونها كل ذلك داخل في باب الاستعاذة بغير الله وكله عن الشرك الذي يبرأ منه الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

وأتم الكلام عن العبادات القولية بذكر أقوال تجري على ألسنة الناس لا يلقون إليها بالاً، وهي معدودة من الشرك الأصغر وقد تكون شركًا أكبر بحسب حال قائلها وقصده.

ومن أفحش ذلك وأخطره وأكثره ذيوعًا بين العامة والخاصة: الحلف بغير الله عز وجل كأن يحلف أحدهم بالنبي ﷺ أو بالكعبة المشرفة أو بحياته أو بحياة أبيه أو يحلف بواحد من هؤلاء الشيوخ أصحاب الأضرحة حتى ترى الواحد منهم يحلف بالله فإذا أراد تغليظ اليمين ليحمل الناس على تصديقه شفع ذلك بالحلف بسيده فلان أو بشيخه فلان.

فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[1] ولهذا يقول ابن مسعود ﷺ (لأن أحلف بغير الله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا)[2]

وإنما عنى بذلك أن الحلف بالله كاذبًا وإن كان كبيرة من الكبائر فإن الحلف بغيره شرك، والكبيرة مهما عظمت فهي دون الشرك، وأهون منه.

وإذًا فليس لمخلوق أن يحلف إلا بالله عز وجل، أو بصفة من صفاته كأن يقول، وعزة الله وقدرة الله وجلال الله، ونحو ذلك.

ولكن الخالق سبحانه له أن يقسم بما يشاء من خلقه تنبيها لذي العقول إلى ما اشتمل عليه من دلائل القدرة وبالغ الحكمة وجسيم النعمة.

كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥،٧٦]

وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠]

وغير ذلك من الأقسام التي اشتمل عليها الكتاب العزيز.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٥٦١)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٤٢).

(٢) صححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٥٦٢).

وإنما كان الحلف بغير الله شركًا؛ لأنه فوق ما فيه من تعظيم المحلوف به تعظيمًا بالغًا حد العبادة هو أيضًا متضمن إشهاده على صدق الحالف فيما يخبر به إن كان الحلف على شيء مضى.

ولا شك أن الذي يملك الشهادة على ذلك هو من رآه أو سمعه وأحاط به علمًا وليس ذلك إلا الله عز وجل، فالحلف بغير الله في هذه الحالة يكون معناه اعتقاد أن له من علم الغيب ما لا ينبغي إلا لله فيكون حينئذ قد جعله لله ندًّا.

وإن كان الحلف على أمر مستقبل يكون معناه أنه يعاهد المحلوف به أن يقوم بما حلف عليه وهذا من جنس النذر الذي هو عبادة لا ينبغي إلا لله، وفيه كذلك معنى الاستعانة به على إتمامه، ولهذا إذا حنث ولم يوف: لزمته الكفارة فإذا كانت اليمين مطقًا ماضية كانت أو مستقبلة متضمنة لمثل هذه المعاني التي هي أدخل في باب التعبد. لا جرم كانت مخصوصة بالله جل شأنه، وأما غيره فليس أهلاً لأن يحلف به لا على الماضي الذي لم يشهده لعدم علمه به ولا على المستقبل لأن الحالف لا يجوز أن يلتزم نحوه بشيء. ولهذا يفهم معنى الحديث في كون الحلف بغير الله شركًا.

ولكن الذي لا يعلمون يستهولون ذلك ويرمون من يقوله بالتشدد والمبالغة وذلك لأنهم اعتادوا الحلف بغير الله، وكثر جريان ذلك على ألسنتهم، حتى هان الأمر عليهم والله يقول ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور: ١٥].

ومن ذلك أيضًا قول الرجل للرجل: (ما شاء الله وشئت ـ وهذا من الله ومنك. وأنا بالله وبك ومالي إلا الله وأنت . وأنا متوكل على الله وعليك. وأنا في حمى الله وحماك) ونحو ذلك بما يفيد اتخاذه ندًّا لله سبحانه ـ فإن العطف بالواو هذه الكلمات يقتضي المشاركة ومساواة المعطوف للمعطوف عليه في الحكم بحيث تكون مشيئته مساوية لمشيئة الله، وحمايته مساويًا لحمايته، وتوكله عليه مساويًا لتوكله على الله، ولا معنى للندية إلا ذلك.

إما إذا عطف بثم بدلاً من الواو فقال ما شاء الله ثم شئت فلا بأس، فإن ثم تقتضي تأخر المعطوف في الرتبة عن المعطوف عليه فتنفي المساواة .

كما روى حذيفة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال« **لا تقولوا ماشاء الله وشاء فلان . ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**»[1]

وروى النسائي بتصحيحه عن قتيلة الأنصارية رضي الله عنها أن يهوديًا أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون ماشاء الله وشئت.

وتقولون والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت.

وروى النسائي أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً قال للنبي ﷺ:ما شاء الله وشئت . فقال:«**أجعلتني لله ندًا قل ما شاء الله وحده**»[2].

وروي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أنه قال(الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول: والله وحياتك يافلان وحياتي.

وتقول: لولا الكلب لأتانا اللصوص. ولولا البط في الدارلأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت . وقول الرجل لولا الله وفلان :لا تجعل فيها فلانًا هذا كله به شرك).

فليتدبر العاقل هذا كله وليحذر من مزالق الشرك ومداخله وليبتعد عن كل ما يوهم الندية لله حتى يسلم له توحيده الذي هو رأس الأمر كله، وليكثر من قوله: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**» حتى يكون قد برئ من الشرك كله. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذ قد فرغنا من الكلام على العبادات القلبية والقولية، وعرفنا ماقد يلابس هذه العبادات من معان شركية تؤدي إلى حبوطها، بل وتحيلها إلى أوزار وآثام

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٩٨٠)، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٢)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٨٣).

تكون وبالاً على صاحبها. نريد أن نتكلم على نوع آخر من العبادات لا يتعلق بالقلب وحده ولا باللسان وحده ولكنه يجمع بين عمل اللسان والقلب والجوارح، وهو ما يسمونه بالعبادات البدنية.

وأهم هذه العبادات على الإطلاق هي الصلاة من حيث إنها أجلى مظهر للعبودية،وأوضح عنوان على التوحيد، وقد ورد في الحديث: **«أن وجه دينكم الصلاة فلا يغبرن أحدكم وجه دينه»**

وفي صحيح مسلم من حديث الحارث بن عاصم الأشعري **«والصلاة نور»**[1] ولهذا ورد من التأكيد في شأنها والتنبيه على عظيم خطرها ما لم يرد بالنسبة لعبادة غيرها.

ويكفي دليلاً على هذا، أنها كانت أول فريضة في الإسلام بعد التوحيد. وأن فرضيتها تمت في السماء ليلة الإسراء من الله إلى رسوله ﷺ بلا وساطة وهي وأنها لا تسقط عن أحد من المكلفين بعذر من مرض أو خوف أو سفر إلا عن حائض أو نفساء .

بل أمر الله بالمحافظة عليها حتى مع التحام الصفوف ومباشرة القتال فقال تعالى من سورة البقرة: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

وجعل المحافظة عليها والخشوع فيها أول خصال الإيمان وآخرها.

فقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ .

كما جعل التهاون فيها والتكاسل عن أدائها أبرز علامات النفاق وديدن الأشرار والفساق،فقال تعالى في صفة المنافقين ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾

وفي آية أخرى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

وقال في سورة مريم بعد أن ذكر المنعم عليهم بالهداية والاجتباء ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾.

وسمى الله تركها شركًا فقال من سورة الروم: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وأخبر عن أصحاب اليمين أنهم ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

فيجيبهم هؤلاء بقولهم ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ بل ولا يقبل من مشرك توبة إلا بعد إقامتها قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾.

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلا إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**»[1]

وفي الحديث الآخر «**والعهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[2].

كما سمي أدائها إيمانًا لأنها أظهر علاماته قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس ولأنها نزلت في شأن من ماتوا قبل تحويل القبلة.

وقد أخبر الله عن الصلاة أنها دواء لكثير من أدواء النفوس ورزائل الأخلاق، مثل الهلع والحرص وحب الشهوات والجزع عند المصيبة، والغفلة عن ذكر الله، قال تعالى ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾

وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٥، ٣٩٣)، ومسلم (٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣).

وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾ وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر، فزع إلى الصلاة، ولقد كانت الصلاة أعظم شعارات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأعظم ما يهتمون له من أعمالهم، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يقول في دعائه ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠]

وهذا ولده إسماعيل يمدحه القرآن بأنه: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]

وهذا عيسى بن مريم يقول لقومه وهو يتحدث إليهم في المهد ببراءة أمه ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

فأين هذا مما يزعمه المخدوعون من الصوفية أن الصلاة وسائر التكاليف قد سقطت عنهم؛ لأنهم وصلوا إلى درجة الشهود والمعرفة لا يحتاجون معها إلى أداء رسوم العبادات، ونسى هؤلاء الجاهلون أن النبي ﷺ وهو في مرض موته كان يخرج يهادى بين الرجلين من أصحابه، حتى يدخل في الصف، وأن آخر وصاة له ظل يرددها حتى تلجلج لسانه هي قوله «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**».

وأن الله أمره أن يدوم على عبادته حتى الموت بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

ونكتفي بهذا القدر في بيان فضيلة الصلاة وعظيم خطرها في الإسلام، لاسيما وأن هذا خارج عن موضوعنا، إذ ليس من غرضنا في هذا البحث إلا بيان أنواع العبادات التي تعبدنا الله بها وما قد يداخل كلًّا منها من ألوان الشرك التي تنافي توحيد الإلهية.

ولا شك أن الصلاة من جملة العبادات قد يعرض لها ما يفسدها ويذهب بما يجب فيها من الإخلاص الذي هو ورحها وروح العبادات كلها.

فمن ذلك مثل الرياء وقد سماه الرسول ﷺ الشرك الأصغر، وذكر أنه يدخل على القلب أخفى من دبيب النمل كما يزين الرجل في صلاته لما يرى من نظر الناس إليه، طلبًا للمحمدة والثناء.

وقد ورد في ذم الرياء كثير من الآيات الأحاديث وأخبر الله عنه أنه محبط للأعمال وأنه من خصال المنافقين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة:٢٦٤].

وقال سبحانه من سورة هود عليه السلام: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥،١٦] وقد صح أنها نزلت في المرائين.

ومن ذلك أيضًا الصلاة عند القبور أو إليها بأن يتخذها قبلة في الصلاة، وهذا العمل بمجرده حرام فقد صح عن النبي ﷺ أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد وأخبر أنه كان سببًا للعنة اليهود والنصارى، ولا شك أن هذا الوعيد الشديد باللعن وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله لا يترتب إلا على ارتكاب أمر بالغ في الحرمة.

فكيف إذا انضم إلى هذا قصد التبرك بصاحب الضريح، واعتقاد أن الصلاة عنده أكثر ثوابًا وأرجى قبولاً، لما يتوهم من شفاعة صاحب الضريح في قبول صلاته ومضاعفة الثواب عليها؟ لا شك أن هذا يكون شركًا صريحًا؛ لأنه جعل لغير الله مدخلاً في قبول الأعمال أو ردها، كما هو حال هؤلاء العاكفين على أضرحة المشايخ ممن لا يحلوا لهم الصلاة إلا فيها.

ويعدون ذلك من أعظم القربات، بل وقد يقيمون فيها الجماعات مع سماعهم لهذه الأحاديث التي تشدد النكير على اتخاذ القبور مساجد. ومن المضحك أن

بعضهم يحمل النهي فيها على كراهة التنزيه وبعضهم يحمله على ما لو صلى فوقها أو إليها ومنهم من يقول إنما ينهى عن بناء المساجد عليها لا عن الصلاة عندها إلى غير ذلك من التأويلات السمجة التي يريدون بها تبرير جريمتهم النكراء وهيهات، فإن الأحاديث من الصراحة والوضوح بحيث لا تقبل هذا الروغان.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت بعد أن روت الحديث «ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن خشي أن يتخذ مسجدًا»(١) ولا شك أنها لم تكن تقصد بذلك الصلاة فوق القبر الشريف ولا إليه، ولكن الصلاة عندهن ومن ذلك شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة بقصد التقرب إلى الله تعالى بالصلاة فيه.

فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**»(٢) والنهي هنا عام بالنسبة لكل مكان يشد إليه الرحال بقصد التعبد، سواء كان مسجدًا أو غير مسجد.

وهذا لا ينافي طبعًا شد الرحال لطلب العلم أو لصلة الرحم أو للتجارة ونحو ذلك مما لا يقصد للتعبد، وبهذا يعلم فساد قول من زعم من الصوفية أن الاستثناء في الحديث ليس من عموم الأمكنة بل من عموم المساجد.

وذلك لكي يبرروا حجهم إلى أضرحة شيوخهم وحثهم المطايا إلى أجداثهم مهما كلفهم ذلك من نفقة وجهد جاعلين ذلك من أفرض الفرائض، حتى لقد يؤثرونه على حج بيت الله الحرام، ولا عجب في أن تأليه الصوفية لشيوخها أمر واضح معلوم.

ومن العبادات البدنية كذلك الصيام، وهو في لسان الشرع إمساك عن المفطرات من الطعام والشراب والجماع بنية صحيحة، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس إيمانًا واحتسابًا لله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

والصوم من أحب العبادات إلى الله سبحانه وتعالى، ومن أجل ذلك اختاره ليكون مظهر الشكر له على نعمته العظمى بإنزال القرآن العظيم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وجعل الشهر الذي يقع فيه الصوم خير شهور السنة كلها، وجعل فيه ليلة هي خير من ألف شهر وسماها ليلة القدر.

ولا غرو، فالصائم وقد ترك طعامه وشرابه وهما مادة حياته، وهجر كل طيباته ومستلذاته، لا يقصد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة، صار حقيقًا بالوعد الذي وعد الله به الصائمين وهو أن يتولى جزاءهم بنفسه كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**»[1].

ومعنى أن الصوم وحده من بين سائر الأعمال لله، أنها جميعًا مظنة الرياء، ولا تخلو من أن يكون للنفس فيها حظ؛ لأنها أفعال ظاهرة.

وأما الصوم فمن قبيل التروك، إذ هو كف النفس عن مشتهياتها فهو عبادة سلبية، وسر بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه غيره فكان أبعد عن الرياء .

ولما كان خلو المعدة من الطعام بالصوم سببًا في تغير رائحة الفم ، جعل خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وشبه الرسول ﷺ الصائم برجل في عصابة ومعه صرة مسك فكلهم يجد ريح ذلك المسك.

والصوم كالصلاة من العبادات التي لا يخلو عنها دين من الأديان، حتى تلك الأديان الوضعية التي لم تتصل بسبب إلى السماء، تعرض على أتباعها أنواعًا مختلفة من الصيام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣].

وذلك؛ لأن الصوم فيه من وسائل التربية وأساليب الرياضة النفسية مالا يتوفر في غيره من العبادات، فهو يقوي الإرادة ويقهر النفس الأمارة بالسوء ويكفكف نوازع الشر، ويعود على الاحتمال بالصبر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

وهو كذلك انتصار للجانب الروحي الملائكي في الإنسان على الحيوان الرابض فيه، فالصائم يسمو على كل شهوة ويعافها من أجل أن الله أمره بذلك، وإذا عرف الإنسان كيف يقهر نفسه ويحجزها عن محبوباتها من أجل غاية أسمى، فإنه يسهل عليه بعد ذلك أن يقودها إلى كل ما فيه نجاتها وسعادتها، وأن يردها عن موارد الهلكة والشقاء فيسعد بها وتسعد به ويعيش حياته حرًّا لا تستعبده شهوة ولا يستفزه طمع ولا تضره فتنة.

ولعل هذا هو معنى الحديث الصحيح «**الصيام الجنة**»[1] إذ المراد أنه وقاية لها من كل ما يدنسها ويوبقها ويهبط بها إلى حضيض الشهوات المؤثمة.

ولنكتف بهذا القدر في بيان فضيلة الصوم، فإن الذى يعنينا هنا أيضًا هو التنبيه على ما قد يداخل هذه العبادة الشريفة من أنواع الفساد والبدع، فإن الشيطان لا يريد أن يدع عبادة من العبادات حتى يدخل عليها من وساوسه وتلبيساته ما يفسد على الناس معناها حتى لا يبقى حظه منها إلا كسراب بقيعة.

فمن ذلك ما سوله لبعض المتصوفة من المبالغة في الجوع والحرمان، حتى تراهم يصومون أيامًا وليالي متصلة، زاعمًا لهم أنهم إذا جاعوا ماتت فيهم الشهوات فتقوى عند ذلك أرواحهم وتصفوا نفوسهم وتتخلص من قيود الجسد، وليس هذا طبعًا صيام أهل الإسلام، ولكنه صيام عباد الأوثان من فقراء الهنود وأتباع بوذا وجماعات (النيرقانا).

وقد يمسك بعضهم عن أنواع معينة من الطعام كاللحوم ونحوها مكتفيًا ببعض النباتات أو الخبز القفار، مما يسبب لهم هزالاً في البدن وفسادًا في الخيال، وسقمًا في التفكير وضعفًا عن القيام بواجبات العبادة من الصلاة والجهاد ونحوها.

وقد يزيد في التلبيس عليهم فيوهمهم أنهم لا يطيقون شكر هذه الأطعمة الدسمة، والمآكل اللذيذة، فيجب أن يقتصروا على ما يستطيعون أن يقوموا

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

بشكره، وقد روي للحسن ﷺ أن رجلاً من هؤلاء الصوفية قال: إني لا آكل الخبيص لأني لا أطيق شكره. فقال الحسن: ويح هذا الأحمق، وهل يطيق شكر نعمة الماء البارد؟.

ومن ذلك أيضًا ما اعتاده كثير من المسلمين من الإسراف البالغ في تناول الأطعمة المختلفة عند الإفطار بكميات هائلة لا تلبث أن تثقل على المعدة فتكسلهم عن الصلاة وتجلب لهم النوم وترهق أجسامهم أشد الإرهاق.

وهذا نتيجة للجهل بحقيقة الصوم والغرض المقصود منه، فإنه لم يشرع لكي يجوع الناس طول النهار ثم يقوموا بتعويض ما فاتهم في الليل؟ بل يجب أن لا يزيد الإنسان عما اعتاده في غير رمضان إن لم يستطع أن يقلل عنه . ولعل هذا الإسراف في الأكل والشرب في رمضان هو الذي جعل المسلمين لا يستفيدون من صوم شهرهم الفائدة المرجوة لصلاح أرواحهم وجسومهم.

ومن العبادات البدنية: الحج إلى بيت الله الحرام، وهو آخر فريضة فرضت في الإسلام، ويزيد على الصلاة والصوم: أن فيه عنصر المال إلى جانب ما يشتمل عليه من الأعمال والأقوال .

والحج رحلة إلى الله تعالى يقوم بها المسلم لينال بها إذا هو أداها على وجهها: طهارة لنفسه من أوزارها حتى يرجع كيوم ولدته أمه، ويفوز على ذلك برضوان الله وجنته.

فالحج المبرور: ليس له جزاء إلا الجنة كما جاء في الحديث[1].

وكثير من الناس لاسيما أدعياء الثقافة والعلوم العصرية لأنهم لا يفقهون الحكمة من هذه الفريضة، تراهم يثيرون الشكوك حول كثير من الأعمال التي جعلها الله مناسك للحج، كاستلام الحجر الأسود وتقبيله، ورمي الجمار ونحو ذلك ويتساءلون عن الحكمة فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

وإذا حاول أحد إقناعهم بما تعكسه هذه الأعمال المختلفة مع ما يلابسها من الأدعية الضارعه والأذكار الخاشعة على النفس من انطباعات وأحاسيس تزيد معنى الإسلام فيها صقلاً وجلاءً وتشعرها بمعاني العبودية الكاملة الخائفة الراجية، لم يجد الكلام مساغًا لدى هذه القلوب الشاردة الغافلة، ولكننا مع ذلك سنحاول جهد الطاقة أن نقرب إليهم هذه المعاني وإن كنا لا نرى ذلك واجبًا، فإن واجب المسلم أن يذعن ويمتثل كل ما أمر به علم الحكمة في ذلك أم لم يعلمها .

فإن الاعتراض على الأمر إبليسية قديمة أعاذنا الله منها . فالحاج يخرج من بلده بعد أن يكون قد رد الحقوق والودائع إلى أهلها، وتحلل من كل مظلمة ظلمها، تاركًا وطنًا يحبه ومسكنًا يرضاه وأهلاً وأولادًا يخاف عليهم وتجارة يخشى كسادها، متحملاً مشقة السفر وألم الفراق ووحشة الاغتراب، كل ذلك في سبيل الاستجابة لنداء ربه حيث دعاه لزيارة بيته الذي اختصه لنفسه وجعله أول بيت وضع لعبادته في أرضه.

وما هو إلا أن يبلغ الميقات حتى يتأهب للقدوم على مولاه، فتجرد من ثياب زينته ويتلفف بثياب العبودية المحضة إزارًا ورداء، بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب.

ثم يهل بعد الصلاة بنسكه من حج أو عمرة، قارنًا ذلك بالتلبية: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، هذه الكلمات التي تفيض بمعاني التوحيد والإخلاص، وتعلن إقبال العبد على ربه وإسراعه في طاعته، وتخصه وحده سبحانه بأن له الحمد كله والنعمة والملك وتنفي عنه الشريك في ذلك كله.

ثم هو بعد ذلك يلتزم في تصرفاته كلها ما التزمه العبد بحضرة سيده، فلا يصدر منه عدوان أصلًا بل كل شأنه سلم وأمان فلا يقتل حيوانًا حتى ولو كان من هوام الجسم ولا ينفر صيدًا ولا ينتف شعرًا ولا يغطي رأسًا، متجنبًا الرفث والفسوق والمراء والجدال إلى غير ذلك مما يخل بإحرامه.

حتى يقدم مكة بلد الله الحرام فيبادر إلى أداء مناسك عمرته التي هي الطواف بالكعبة المشرفة والسعي بين الصفا والمروة ذاكرًا في طوافه وسعيه أنه في جوار ربه الكريم الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، فيدعوه في ذلة وضراعة أن يحط عنه أوزاره وخطاياه، ومن عجب أن كل ملوك الدنيا ورؤسائها يتخذون لهم قصورًا يؤمها الناس من رعيتهم وغيرهم في المناسبات المختلفة إعرابًا عن ولائهم لهم حتى ولو لم يكونوا هم موجودين فيها، فماذا ينكر إذًا من وجود بيت الله في أرضه يؤمه عباده الذين هم عباده إظهارًا لذل العبودية، وقيامًا بواجب الطاعة، وتخففًا من أثقال الذنوب وطلبًا للفضل والرحمة من الكريم المنان.

وهكذا كل أعمال الحج من السعي والوقوف بعرفة والمزدلفة ورمي الجمار والذبح، لا تخلو كلها من معاني التعبد المحض والتزلف للسيد المالك جل شأنه، كما تتزلف الرعايا ملوكها ولله المثل الأعلى.

أما تقبيل الحجر الأسود فإنه لا يخطر ببال مسلم أبدًا وهو يقبله أنه ينفع أو يضر، كما روي عن الفاروق ﷺ أنه قال بعد أن قبله: (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك)[1] فنحن نقبله كما قال عمر اقتداء برسولنا وهو عليه السلام لم يفعل ذلك من عند نفسه، بل بوحي من ربه، فماذا إذًا في تقبيل حجر تعبدنا الله بتقبيله فنحن نقبله عبادة لله لا عبادة للحجر.

وأما رمي الجمار فإن المسلم يذكر عند الرمي أنه يرجم الشيطان الذي كان سببًا في صرفه عن طاعة ربه، والذي يتسلط عليه بإغوائه ووسوسته ليجعله من أصحاب السعير.

فكأن المسلم حين رمى هذه الحصيات مكبرًا عند كل حصاة يريد بذلك أن يعلن مخالفته لذلك الشيطان الرجيم، حتى لا نصير من جنده الخاسرين ويذكر عندئذ ما كان من أمر إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام حين عرض لهما

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

الشيطان يريد قتلهما عن تنفيد أمر الله في ذبح إسماعيل فرجماه، فارتد خاسئًا مدحورًا.

فما أحرى الناس أن يتدبروا هذه المعاني السامية حين قيامهم بمناسك حجهم وعمرتهم، حتى يشعروا فيها بطعم العبودية ولا يرين على صدورهم شيء من الشك في حكمتها.

وما أحراهم كذلك أن يذكروا ما في الحج وراء هذه الفوائد الروحية الفردية من فوائد اجتماعية عظيمة تتمثل في ذلك اللقاء والتعارف بين المسلمين الوافدين من شتى أقطار الأرض تظلهم جميعًا راية التوحيد، وتؤلف بينهم أخوة الإسلام حيث يتبادلون المنافع ويتشاورون فيما يهمهم من عظائم الأمور.

مصداق قول الله تعالى لخليله إبراهيم ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ [الحج:٢٧،٢٨].

والآن لم يبق من الكلام على توحيد الإلهية إلا عن العبادات المالية التي تعبدنا الله بها في أموالنا من الصدقات والذبائح والنذور ونحوها، وهذا النوع من العبادات قد دخله من ألوان الشرك وصوره ما يصعب حصره، فإن كثيرًا من الناس يجهلون أن لله عليهم عبادة في أموالهم التي هي من رزقه وفضله.

وقد لبس عليهم الشيطان في أمرها كما لبس عليهم في غيرها بل أشد فألقى في روعهم أن هذه الأموال إنما سيقت إليهم ببركة الشيخ فلان أو بسبب دعائه وشفاعته، وإنه هو القائم على حراستها وتنميتها فهي ستبقى ما بقي الشيخ راضيًا وهو لا يرضى طبعًا حتى يجعلوا له في هذه الأموال نصيبًا مفروضًا.

فتراهم ليسوا على شيء أحرص منهم على سوق هذه الأموال من النذور والذبائح إلى أضرحة هؤلاء المشايخ. وعلى شهود المهرجانات الشركية التي تقام لهم .

وإذا سولت لأحدهم نفسه أن (يأكل النذر) الذي نذره لواحد من هذه الأضرحة فإنه يبقى طيلة عامه متوقعًا للمصائب تحيق به على يد الشيخ صاحب النذر لاسيما إذا كان الشيخ غضوبًا كما تزعمه العامة في(أبي العينين الدسوقي) فإذا جرى على هذا الآكل للنذر شيء من قدر الله عز وجل.

من فقد مال أو ولد أو نحو ذلك أيقن أن الذي أصابه إنما هو بسبب غضب الشيخ عليه لعدم وفائه بالنذر، وهكذا يعيش هؤلاء التعساء من عباد القبور في هم ناصب وقلق واصب لأنهم لا يدرون مواقع الرضى والغضب من نفوس هؤلاء الموتى وأيهم أحق أن يرضوه وصدق الله إذ يقول ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

ونرى بعد هذه المقدمة الطويلة أن نكشف للناس عن هذه التلبيسات التي يلبس بها عليهم شياطين الإنس والجن وأن نقول كلمة الحق في هذه المسائل إعذارًا إلى الله عز وجل ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.

ويكفينا في هذا المجال أن نثبت أن هذه الأمور من جملة العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه فإنه إذا ثبت ذلك علم قطعًا أنه لا يجوز صرفها إلى غير الله كما هو الشرط في سائر العبادات.

أما الصدقات فلا يشك مسلم في أنها من أعظم القربات إلى الله عز وجل وقد قرنها الله بالصلاة في كثير من آيات الكتاب الحكيم وجعلها من أعظم خصال الإيمان ووعد عليها بجزيل الثواب بل وسماها قرضًا ووعد عليه أضعافًا كثيرة.

ويطول بنا القول لو تتبعنا ما ورد في شأن الصدقة من الآيات والأحاديث وهو أمر معلوم لكل من له إلمام بنصوص الوحيين ولكن الذي يحتاج للتنبيه عليه هو ما يعرض للصدقة من أعمال شركية تحبطها وتبطل ثوابها وذلك مثل الرياء، والمن بها على الآخذ، والاستطالة بها عليه.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤].

ومن ذلك أيضًا أن يتحرى بصدقته الفقراء المجاورين عند الأضرحة لما يلتمسه من بركة أصحابها، أو أن يقيم لهم بها الموالد أو يشتري لهم بها أستارًا أو بسطًا أو سرجًا أو نحو ذلك مما تزين به هذه الأضرحة ظنًا منه أن تلك قرب يتقرب بها إلى الله عز وجل فلا يزداد بها من الله إلا بعدًا.

وهذه حال كثير من الناس لا يتحرون بصدقاتهم إلا هذه المواضع مما يدل على أنهم لم يقصدوا بها وجه الله بل إنما قصدوا بها إرضاء أصحاب هذه الأضرحة بل قد يترك بعضهم الفقراء من ذوي قرابته أو أهل بلده ممن هم أحق بصدقته ويدفعها إلى من لا يستحقها من سدنة هذه الطواغيت والعاكفين عليها، وأما النذر فهو في الأصل غير مشروع بل قد ورد النهي عنه.

قال ﷺ «**لا تنذروا فإن النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخره وإنما يستخرج به من البخيل**»[1].

ولكنه إذا نذر لزمه الوفاء وصار النذر حينئذ قربة وعبادة لا تنبغي إلا لله وعلى هذا يحمل قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة:]

وقوله من سورة الحج: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

وقوله من سورة الدهر في صفة الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الأنسان:٧].

وفي الحديث الصحيح: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[1]

(١) أخرجه مسلم (١٦٤٠).

وبهذا يتبين أن ما ينذره بعض الجهلة لأصحاب الأضرحة من نقود وشموع ونحوهما هو نذر باطل وشرك صريح وأنه لا يلزم أحدًا الوفاء بهذا النذر إذ لا وفاء لنذر في معصية الله عز وجل.

وقد روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ إني نذرت أن أنحر إبلاً بمكان كذا فسأل النبي ﷺ عن هذا المكان هل كان فيه صنم يعبد؟ فقيل لا ثم سأل: هل كان يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية؟ فقيل لا فقال للرجل: «**أوف بنذرك فإنه لا وفاء بنذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم**»(٢).

ومن العجيب أنه قد صدرت في هذا الموضوع عدة فتاوى رسمية وأذيعت عنه أحاديث كثيرة كلها مجمعة على بطلان هذه النذور واعتبارها شركًا ولكن الناس لا يزالون سادرين في غوايتهم ومصرين على ضلالتهم، لا يقبلون فيها لومة لائم، وقديما قيل: (حبك الشيء يعمى ويصم) وأما الذبح أو النحر فلا يشك مسلم كذلك في أنه عبادة مأمور بها قال تعالى من سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢،١٦٣]

والنسك هنا معناه الذبح ـ وقال من سورة الحج: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [الحج:٣٤].

وقد أمر الله من تمتع بالعمرة إلى الحج أن يذبح ما استيسر من الهدي. وأوجب على من ارتكب شيئًا من محظورات الإحرام فدية من صيام أو صدقة أو نسك وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر:١،٢].

فجعل الأمر بالنحر قرين الأمر بالصلاة، وقد ورد أنه ﷺ نحر في حجة الوداع مائة بدنة وأنه كان يضحي يوم عيد الأضحى بكبشين أملحين، ولم تزل الأضحية واجبة على كل قادر عليها من المسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣١٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٥٥١).

فد ذلك كله على أن الذبح عبادة يتقرب بها إلى الله عز وجل وفي الحديث « **أفضل الحج الثج والعج**»[١] والمراج بالثج صب الدماء وعلى هذا فمن ذبح ذبيحة وأهل لغير الله، أو قصد التقرب بذبحها لغيره أو أطعمها الناس على اسم غيره كهذه الذبائح التي تذبح في مولد البدوي وغيره فقد أتى عملاً فظيعًا من أعمال الشرك وضاهأ أهل الجاهلية الأولى في ذبحهم لآلهتهم على النصب.

وفي الحديث «**لعن الله من ذبح لغير الله**»[٢].

نسأل الله أن يجنبنا مزالق الشرك كلها ونستعيذ به أن نشرك به شيئًا ونحن نعلم ونستغفره لما لا نعلم، وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

فرغت من الكلام عن كل من توحيد الربوبية الذى هو اعتقاد أن الله عز وجل هو رب كل شيء وخالقه ومليكه وأنه مدبر الأمر كله لا مدبر له غيره وأنه الرازق للعباد المتكفل بمصالحهم وأن الحكم كله لله لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا مكره له على ما يريد .

وتوحيد الإلهية الذى هو إفراده سبحانه بالعبادة وإخلاص الدين له وحده والبراءة من كل ما يعبد من دونه مما لا يملك لعابديه نفعًا ولا خيرًا ولا هدى ولا نصرًا ولا رزقًا ولا شفاءً ولا غير ذلك من شئون الربوبية التى لا يستحق العبادة والتعظيم إلا من كان متصفًا بها وليس ذلك إلا الله وحده جل شأنه: والآن أنتقل إلى بيان النوع الثالث من التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات.

ولهذا النوع من التوحيد أهمية خاصة لكثرة ما يقع فيه من اللبس. ولطالما احتدم حوله الجدل وثار النزاع بين الطوائف المختلفة فهو بحق مدحضة العلماء ومزلة أقدامهم ومحك اختبارهم.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦١٣١)، وصححه العلامة الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

كم ضل فيه من علماء أعلام وتاه فى تيهه كثير من أولى النهى والأحلام ولا سبب لذلك طبعًا إلا الجرى وراء الفلسفات الدخيلة والمذاهب الوثنية وإحسان الظن بها وتقديم ذلك على هدى الكتاب والسنة وقد عالجت هذا الموضوع فى كتابى المعروف (بابن تيمية السلفي) عند الكلام على المذاهب المختلفة فى الصفات. وفى شرحى للعقيدة الواسطية المعروف (بالثمار الشهية).

وقد ألفت فيه أخيرًا رسالة صغيرة بعنوان (مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية فى صفات الله تعالى) ولكنى مع ذلك لا زلت أرى أن الموضوع من الخطورة بحيث يحتاج إلى مزيد من الإيضاح والتأكيد.

وقد رأيت أن أقتصر هنا على إثبات المذهب الحق ضاربًا صفحًا عن ذكر ما عداه من المذاهب سواء ما كان منها غاليًا فى الإثبات كمذهب المشبهة والممثلة. أو غاليًا فى النفى والتعطيل كمذاهب الجهمية والمعتزلة والفلاسفة وإن فيما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما الله تعالى فى هذا الباب لغنية وشفاء فقد أوفيا فيه على الغاية إيرادًا للحجج والبراهين وردًا على المشاغبين والمعاندين وتركًا فى هذا الموضوع من المؤلفات الصغيرة والكبيرة ما يعيا به الحصر فعلى طالب الهدى الرجوع إلى ذلك ليعلم أين يكون الحق فى هذا المضطرب الذى تتصارع فيه الآراء والأفهام.

ولقد رأيت أن أفتتح الكلام فى هذا الموضوع بتلك المقدمة القوية الرائعة التى صدر بها شيخ الإسلام ابن تيمية فتواه الحموية، التى ألفها جوابًا على سؤال ورد إليه من حماه يقول فيها صاحبه: ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين فى آيات الصفات كقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [الرعد:٢] وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت:١١] إلى غير ذلك من الآيات وأحاديث الصفات كقوله ﷺ: **«إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»** وقوله:- **«يضع الجبار قدمه فى**

النار»[1] إلى غير ذلك وما قالت العلماء فيه؟ وابسطوا القول فى ذلك مأجورين إن شاء الله تعالى.

فأجاب الشيخ رحمه الله وغفر له:

الحمد لله رب العالمين ـ قولنا فيها ما قاله الله ورسوله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم وهذا هو الواجب على جميع الخلق فى هذا الباب وغيره.

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد وشهد له أن بعثه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا وأمره أن يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨] فمن المحال فى العقل والدين أن يكون السراج المنير الذى أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة . وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته.

محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب من الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبها ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العلى وما يجوز عليه وما يمتنع عليه فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول.

فكيف يكون ذلك الكتاب؟وذلك الرسول ؟ وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولًا؟

ومن المحال أيضًا أن يكون النبى ﷺ وقد علم أمته كل شيء وقال: «تركتكم

---

[1] صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤)، وأحمد (٦٥٣٣، ٦٥٧٣).

على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك»[١] وقال فيما صح عنه أيضًا « ما بعث الله من نبى إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » وقال أبو ذر: (لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علمًا) وقال عمر بن الخطاب: (قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه)[٢] رواه البخارى ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة فى الدين وإن دقت أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم فى ربهم ومعبودهم رب العالمين الذى معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب. بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية. فكيف يتوهم من فى قلبه أدنى مسكة من إيمان أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام.

ثم إذا كان هذا قد وقع منه فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا فى هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين.

ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة ـ القرن الذين بعث فيه رسول الله ﷺ ـ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كانوا غير عالمين وغير قائلين فى هذا الباب بالحق المبين لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق وكلاهما ممتنع إلى أن يقول:(ولا يجوز أيضًا أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن (طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم) وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء فقد يعنى بها معنى صحيحًا.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٣٧)، وصحيح ابن ماجه (٤١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣١٩٢).

فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة:٧٨] وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات.

فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة الخلف فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم والضلال بتصويب طريقة الخلف).

وإذا كان توحيد الأسماء والصفات يقوم كما ذكرنا على أن الله سبحانه مختص بما له من الأسماء والصفات، لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وعلى وجوب إثبات كل ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تمثيل ولا تعطيل، فإن هناك قواعد عامة في هذا الباب يجب رعايتها حتى تكون بمنجاة من التورط في ورطات الضلال التي وقعت فيها الفرق المختلفة. فمنهم من غلا في الإثبات حتى مثل الله بخلقه، ووقع في حمأة التشبيه، ومنهم من غلا في النفي والتعطيل حتى أدى به ذلك إلى جحد الذات نفسها واعتبارها عدمًا لا وجود له ومنهم من أثبت الأسماء دون الصفات تحكمًا بلا دليل. ومنهم من أثبت بعض الصفات دون البعض، جريًا وراء وهم فارغ لا أصل له.

ولم يكن لهذا الضلال كله من سبب إلا الإعراض عن هدى الكتاب والسنة، والتصرف في نصوصهما بالتأويلات الفاسدة، والجرى وراء الظنون الكاذبة، بدعوى أنها عقليات لا تقبل النقض، والقول على الله سبحانه بلا علم .

أما تلك القواعد والأسس التي تجب ملاحظتها في هذا الباب فهي :

أولًا: لا يصح أن يسمى الله عز وجل إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ، ولا أن يوصف كذلك إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فإن

أسماء الله تعالى كلها توقيفية لا يجوز إطلاق شيء منها على الله فى الإثبات أو فى النفى إلا بإذن من الشرع.

وما لم يصرح الشرع بنفيه ولا بإثباته يجب التوقف فيه حتى يعلم ما يريد به قائله. فإن أراد به معنى صحيحًا موافقًا لما رود به النص قبل ولكن لا يعبر عنه إلا بألفاظ النصوص ولا يعدل عنها إلا لضرورة، وإن أراد به معنى فاسدًا وجب رده، والأصل فى ذلك أن معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته، هى من شئون الغيب التى لا سبيل إلى إدراكها بالعقل وحده، فإن العقل لا يتجاوز بقدرته نطاق هذا الوجود الحسى الذى يمكن أن ينفذ إليه من طريق الحواس.

أما شئون الغيب فلا مجال له أن يحكم عليها مقتضى أقيسته وبراهينه. وإنما وظيفته أن ينظر فيما جاءت به النصوص من أخبار هذه الغيوب فيثبت ما أثبتته النصوص وينفى ما نفته، من غير أن يضيف من عنده شيئًا لا فى الإثبات ولا فى النفي. ومهما توهم العقل أن صفة ما هى صفة كمال، لا يجوز له إثباتها ما لم تكن ثابتة بالشرع ومهما توهم أن صفة ما هى صفة نقص لا يجوز له نفيها مالم تكن منفية بالشرع إذ لا عبرة فى هذا الباب بوهم العقل فإنه قد أدى فى كثير من الأحوال إلى نفى كثير من صفات الكمال الثابتة بالكتاب والسنة.

ثانيًا: يجب أن يكون معلومًا أن الله عز وجل لا يماثل شيئًا من خلقه ولا يماثله شيء، فكل ما ثبت له من الأسماء والصفات فمعناه يختص به لا يشاركه فيه أحد.

ثم قد يكون هناك أسماء مشتركة بين الله وبين خلقه أو بين صفاته وصفات خلقه، فهذه يجب أن لا توهم تشابهًا فى المسمى. فإن الاشتراك إنما هو فى محض الاسم وفى القدر المشترك الذى يدل عليه عند الإطلاق ، وذلك لا يوجب مماثلة أصلًا بين الله عز وجل وبين من يسمى بهذه الأسماء أو يوصف بهذه الصفات من المخلوقين.

فتسمية الله تعالى قادرًا لا توجب مماثلة قدرة الله لقدرة العبد، وكذا تسميته عالمًا ومريدًا وحيًا وسميعًا وبصيرًا ومتكلمًا وغير ذلك من أسمائه الحسنى التى قد

تطلق على غيره لا توجب أن علمهم كعلمه ولا إرادتهم كإرادته ولا حياتهم كحياته..إلخ.

والأصل فى ذلك أن ما يوصف به العباد إنما يتعين ويتخصص بالإضافة فإن أضيف إلى الله كان معنى مختصًا به لا يليق بغيره، وإن أضيف إلى المخلوق كان معنى مختصًا به يتنزه الله عز وجل عن الاتصاف به .

وفى تقرير هذه القاعدة على هذا الوجه حل لإشكالات كثيرة، فإن الذين نفوا عن الله عز وجل ما يطلق على خلقه من الأسماء والصفات وتأولوا ما ورد فيها من الآيات والأحاديث، إنما فعلوا ذلك لتوهمهم أن إثبات هذه الأسماء والصفات يقتضى المماثلة بين الله وخلقه فعطلوا خوف التشبيه، ولو أنهم أدركوا أن لهذه الألفاظ إذا أطلقت على الله معانى آخر غير التى تناسب المخلوق، لما وقعوا فى حمأة التعطيل، ولكن من يضلل الله فما له من سبيل، وبناء على هذه القاعدة العظيمة يمكن أن نثبت لله كل ما ورد به الكتاب العزيز من صفات الاستواء والمجيء والإتيان يوم القيامة والتكليم والنداء والمناجاة بأصوات مسموعة، وحروف مفهومة والرحمة والحكمة، والرضى والغضب والمحبة والكراهة واليدين والعينين والوجه، أو غيرها وكذلك نثبت له ما وردت به السنة الصحيحة من صفات النزول إلى سماء الدنيا والدنو من الحجاج عشية عرفة، والفرح بتوبة عبده حين يتوب والضحك وغيرها، ما دمنا نعتقد أن كل ما ثبت لله من هذه الصفات هو غير ما ثبت منها للمخلوقين.

تكلمت فى الماضى عن قاعدتين من القواعد العامة التى تجب مراعاتها فى باب الأسماء والصفات، وهما أن أسماء الله عز وجل توقيفية لا يجوز إطلاق شيء منها على الله ما لم يرد به نص وأن الله سبحانه يختص بما له من الأسماء والصفات ، لا يشاركه فيها أحد والآن أستكمل الكلام فى بقية القواعد فأقول:

ثالثًا: أن كل ما ثبت لله من الصفات الوجودية فهو ثابت له على جهة الكمال المطلق الذى هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون وراءه كمال آخر

ولا يمكن أن يعرض لها النقص بوجه من الوجوه فهو سبحانه له المثل الأعلى فى كل ما ثبت له من الأسماء والصفات، ولا يمكن أن يكون هذا المثل لأحد سواه فصفاته وجدت كاملة من الأزل إلى الأبد، لم تكن ناقصة ثم كملت كما هو الحال فى صفات غيره. ولا يمكن أن يطرأ عليها النقص الذى قد يطرأ على صفات المخلوقين. فحياته سبحانه أكمل حياة لأنها من لوازم ذاته، فهى أقدم حياة وأدوم حياة وأقوى حياة، ولا يمكن أن تسبق بموت ولا أن يلحقها موت قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨].

وفى الحديث: «**أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحى الذى لا تموت والجن والإنس يموتون** »[١].

وكذلك كل ما تستلزمه هذه الحياة الكاملة من الصفات هو ثابت على أكمل وجه وأتمه. فقدرته أكمل قدرة لا يعجزها شيء ولا يصيبها لغوب أو إعياء، وعلمه أوسع علم وأشمله، فهو محيط بجميع المعلومات لا يمكن أن يند عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

وإرادته أتم إرادة فلا يقع فى ملكه إلا ما يريد، وسمعه وسع الأصوات كلها مهما خفتت فهو يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء. قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧] وبصره أكمل الأبصار رؤية، فلا تغيب عنه ذرة مهما دقت، ولا يؤثر فيه بعد ولا يحجبه حيطان، ولا أستار قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وكلامه أتم كلام وأبلغه، فلا يمكن أن يكون فى كلامه خفاء أو قصور. قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٥] وهكذا الحال فى جميع الصفات، لا يجوز أن تثبت له إلا على هذا الوجه من الكمال، وأما ما نفاه الله عز وجل عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، فإن هذا النفى بمجرده ليس كمالًا، إذ الكمال

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

لا يكون إلا أمرًا موجودًا، وأما الأمور السلبية أو العدمية فلا تكون كمالًا إلا إذا تضمنت أمرًا وجوديًا.

ولهذا لم يرد فى الكتاب ولا فى السنة نفى نقص عن الله عز وجل إلا ويراد به إثبات ما يضاد ذلك النقص من صفات الكمال. فنفى العجز فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ ﴾ [فاطر: ٤٤]. إنما هو لإثبات كمال قدرته. ونفى السنة والنوم فى قوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إنما يراد به إثبات كمال حياته وقيوميته. ونفى الظلم فى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠] إنما هو لإثبات كمال عدله وحكمته، وهكذا فى بقية الصفات.

ولهذا أيضًا لم يرد النفى فى الكتاب ولا فى السنة إلا مجملًا فى أغلب أحواله، كما فى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾.

وأما صفات الإثبات فيكثر ورودها على جهة الاستيعاب والتفصيل.

رابعًا: أن صفات الله تعالى نوعان:

(١) **أحدهما:** صفات ذات وهى التى تكون لازمة لذاته لا تنفك الذات عنها أزلًا وأبدًا، ولا يتعلق شيء منها بمشيئته وقدرته، وذلك مثل صفات الحياة والعلم والقدرة والعزة والكبرياء والملك والمجد والعظمة والقوة ونحوها.

(٢) **وثانيهما:** صفات أفعال لا تكون لازمة لذاته بل يجوز خلو الذات عنها، وتعلق بها مشيئته وقدرته، فهو يحدثها سبحانه فى ذاته شيئًا بعد شيء حسب اقتضاء حكمته، ولكن ليس لما يحدث منها فى ذاته ابتداء بل تصدر أفرادها على التعاقب فى الوجود متسلسلة شيئًا بعد شيء دون أن تنتهى السلسلة، لا فى جانب الأزل، إذ لا ابتداء لها ، ولا فى جانب الأبد حى لا انتهاء لها. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧] ولنضرب لذلك مثلًا بصفة الكلام، فإن الكلام منه صفة ذات وهو: قدرته تعالى على أن يتكلم متى شاء وكيف شاء، ولكن صدور الكلام منه بالفعل

لا يكون إلا فى حادثًا بمشيئته وقدرته. إذ لا يعقل أن يكون كلم موسى فى الأزل وقال له:﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ [طه: ١٢] بل كلمه حين جاء إلى المقيات كما قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وكذلك صفة الإرادة، لا يعقل أن يكون أراد الأشياء كلها فى الأزل وإلا لوجدت كلها فى الأزل، بل كل مراد من المرادات إنما يقع بإرادة جزئية خاصة به كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] وهكذا فى جميع صفات الأفعال لا توجد أفرادها مجتمعة فى الأزل بل لا توجد إلا على التعاقب فيها لايزال . وهذا البحث مبسوط فى كتابى (ابن تيمية السلفي) وفى كثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فليرجع إليه من شاء.

أسأل الله أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.



فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة
مقدمة الناشر.. ٥
مقدمة التخريج.. ٦
ترجمة المؤلف.. ٧
تمهيد.. ١١
وجود الله.. ١٦
توحيد الله عز وجل.. ٢٤
أقسام التوحيد.. ٢٥
يقول شيخ الإسلام في رسالته العبودية.. ٤٨
العبادات القولية.. ٥٦
أولاً الذكر.. ٥٧
الدعاء.. ٦٤
الاستغاثة.. ٨٠
العبادات البدنية.. ٨٧
فهرس الكتاب.. ١١١


I.P.C


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com







81 ش الهدى المحمدى متفرع من ش احمد عرابى مساكن عين شمس
القاهرة جمهورية مصر العربية
جوال: 0103059052-0101021187
فاكس: 0101022728
موقعنا على الإنترنت www.DarElshareaa.com
البريد الإلكترونى DarElshareaa@maktoob.com